العقيدة

في

ضوء الكتاب والسنة والعلم الحديث

الدكتور

عبد العزيز المرشدي

أستاذ العقيدة والفلسفة

بجامعة الأزهر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى شرفنا بالانتساب إلى خير أمة ، وبعث إلينا خير الرسل ، وأنزل إلينا خير الكتب ، وشرع لنا أفضل الشرائع . فله الحمد على الإسلام وكفى بها نعمه ، وله الحمد على القرآن وأكرم بها نعمه . وله الحمد على نعمه محمد وما أجلها نعمة ، وأسعدها هدية . فقد قال سبحانه : (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم) . **وبعد** . . .

ولقد آن لنا أن نجدد علم التوحيد على ضوء الدراسات والأبحاث العلمية المعاصرة ، وأن نعود به إلى أصله القرآنى من حيث هو دعوة الأنبياء والمرسلين ، وكل مانحتاج إليه فى هذا الشأن إنما هو محاولة جادة لبناء علم التوحيد على ضوء الكتاب والسنة ، ثم تدعيمه بما نستطيع من آيات كونية وإنسانية لفت نظرنا إليها القرآن الكريم نفسه .

فإن القرآن الكريم ينفرد فى دلالته على مسائل العقيدة انفرادًا قد عجز العالمين على الأتيان بمثله . وذلك لأنه يفجر الأنوار تفجيرًا يملأ وجود المؤمن بالمعرفة الحقة التى تجعله يسلم للخالق تسليمًا ، ثم هو يرشد عقل المنكر فى تؤدة وأناة للنظر فى الآفاق وفى النفس حتى يتبين لهذا المنكر وجه الحق والحقيقة .

إن هذه العقيدة – كما صورها القرآن الكريم والسنة النبوية – سهلة ميسورة يفهمها العامة ويدركها العلماء ، وينهل منها المثقفون ويرتاح لها المؤمن ، ويقتنع بها المنكر .

وإعجاز القرآن فى تصويره للعقيدة يزداد أكثر بعد قراءة الفلسفات أو علم الكلام ، أو علم التوحيد خاصة الكتب التراثية التى ألفت فى وقت وقوم لا علاقة بينهما وبين واقعنا المعاصر .

ذلك أن كتب الفلسفة وعلم الكلام فى مسائل الإلهيات – مثلا – تبدأ بما يسمونه نظرية الوجود ، فتستعرض الفروض والتخمينات التى لا طائل وراءها والتى قد تنتهى إلى حد الإسفاف بل إلى حد حرمان القلوب المتعطشة للمعرفة الإلهية مع أن هذه العلوم قد تخصصت فى تفهيم الناس عقائدهم وشرحها شرحًا مفيدًا ، وهو مالم نره .

والأهم من ذلك أن مباحث هذه العلوم فى هذا الشأن هى مباحث منقطعة الصلة بالواقع عديمة التأثير فى الحياة ، ومن هنا يشعر الإنسان أنه ليس فى حاجة إليها الآن ؛ إذ لا تسمن دراستها ولا تغنى من جوع عقدى أو فكرى .

وسبب تأليف هذا الكتاب :

أولاً : بيان أن العقيدة الإسلامية الصافية يمكن أن يعبر عنها الكتاب والسنة أصدق تعبير دون الدخول فى متاهات الكتب الكلامية

خاصة الاعتزالية منها .

ثانيًا : أن هذه العقيدة متوافقة تمام التوافق مع العقول السليمة والفطر المستقيمة . بمعنى عدم تعارض العقل والنقل إزاءها .

ثالثًا : أن هذا الكتاب محاولة جادة لإظهار علـم كـلام جديـد يتعامل مع معطيات العلم الحديث ، ومستحدثات الحـضارة الغربيـة المعاصرة .

رابعًا : بيان صدق المقولة القائلة : إن العلم يدعو للإيمـان ، وأن الاكتشافات العلمية رصيد يضاف للعقيدة الإسلامية بـشرط أن نحسن التعامل مع العقيدة والعلم الحديث .

خامسًا : البعد قدر الإمكان عن التعقيدات الكلامية التى طفحت بها كتب المتكلمين والتى كتبت فى ظروف مختلفة ولأقوام مختلفين عن ظروفنا وبيئتنا .

سادسًا : محاولة إظهار عصرية الخطاب الدينى ، وملاءمتـه لكل العصور ، مع الحفاظ على ثوابت العقيدة والشريعة .

سابعًا : هذه المقررات التى تدرس فى جامعة الأزهر خاصـة مادة التوحيد والتى تعطى انطباعًا لمن يطلـع عليهـا بـأن هـذه الموضوعات التى تناولتها هذه المادة لايمكن أن تكون هى التوحيـد الذى جاء به محمد ﷺ ، والذى من خصائصه السهولة واليسر .

كما أنها لا تعبر حقيقة عن تراثنا الإسلامى المعبر عن هويـة

الأمة الإسلامية .

هذا والدارس للعقيدة يمكنه أن يفصل بين مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : مرحلة التدين بهذه العقيدة والانفعال السلوكى بها دون الكلام فيها أو الدخول فى تفاصيلها ، وهذا ماكان عليه الصحابة رضوان الله عليهم حيث ركزوا أولاً على ماوراء كل عمل .

والمرحلة الثانية : مرحلة الكلام عن هذه العقائد دون الدخول فى تفاصيلها أو التركيز عليها أو التأليف فيها . بل كان الأمر لا يتعدى إجابة سؤال سئل . وهذا ماكان عليه التابعون رضوان الله عليهم .

والمرحلة الثالثة : مرحلة التأليف فى مسائل العقيدة وجعلها علما مستقلاً له أصول وقواعد . ومن هنا سمى بعلم الكلام . وقد نشأ هذا الأمر على يد المعتزلة .

فهناك إذًا فرق بين العقيدة كاعتقاد يتدين الإنسان به ويسير فى حياته على أساسه ، وبين العقيدة كعلم له أصول وقواعد . والأخير قد اختلط بالفلسفة والمنطق ، الأمر الذى جعل كثيرًا من علماء السلف يهاجمونه ويعترضون عليه .

من المعلوم أن أى دين سماوى يشتمل على قسمين رئيسين :

القسم الأول : هو العقيدة ، وهى المتعلقة بأعمال القلوب ، أو الأعمال الباطنية ، وهذا القسم لا تغيير فيه ولا تبديل من لدن آدم وحتى محمد ﷺ .

هذا القسم لا يمكن بأى حال مـــن الأحـــوال التهـــاون فيـــه ، ولا الشك فى مفرداته . حيث يمثل الأصل ، وما عداه يمثل الفرع ، ولهذا يطلق عليه علم أصول الدين ، والفقه الأكبر .

وهو لازم من لوازم دعوة أى نبى ورسول . قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (١) .

ومن أهم أصول هذا القسم توحيد الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢) .

ومسائل العقيدة تنقسم بدورها إلى قسمين :

أ – أصول : ويمكن أن يطلق عليها أصول العقيدة ، وذلك مثل الإيمان بالله ، والاقرار بوحدانية ، والإيمان بالملائكة ، والرسل والكتب السماوية ، واليوم الآخر .

والإيمان بهذه الأصول شرط لإطلاق الإيمان على الفرد ؛ إذ عدم الإقرار بواحد منها يؤدى إلى الكفر لا محالة .

---

(١) سورة الشورى : آية ١٣ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٥ .

ب – فروع ، ويمكن أن يطلق عليها فروع العقيدة .

وهذه الفروع فيها مجال للأخذ والرد ، والاختلاف حولها لايوجب تكفيراً .

وذلك مثل الاختلاف حول رؤية رسول الله لربه ليلة الإسراء والمعراج ، ومثل هل الصفات عين الذات أم زائدة على الذات ، وهل الإيمان هو الإسلام أم لا ، وهل الرسول أفضل من الملك أم لا ، والمهدى المنتظر . . إلخ .

وأغلب الفرق الكلامية نشأت من الخلاف حول هذه المسائل ، ولكنها مسائل لاتوجب تكفيراً .

لهذا وجدنا السيدة عائشة تنكر رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء والمعراج ، وتقول : من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . أى الكذبة .

فى الوقت الذى يذهب فيه عبد الله بن عباس إلى أن رسول الله ﷺ قد رأى ربه فيقول (أتعجبون أن تكون الخُلَّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ﷺ) .

القسم الثانى : الشريعة . وهى المتعلقة بأعمال الجوارح ، مثل الصيام والصلاة والحج . . . إلخ .

وهذه الشريعة تختلف باختلاف الأزمان والأمم ، فشرع من قبلنا ليس شرعًا لنا .

ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . وهذا القسم يطلق عليه الفقه الأصغر أو علم الفروع والمنوط بالبحث فيه الفقهاء ، والكلام عن قواعده هو أصول الفقه .

وهذا القسم أيضا له أصول وله فروع .

أ – **أما أصوله** : فمثل : الصلوات الخمس وعدد ركعات كل فرض ، وهى لايمكن الاختلاف فيها ولا حولها . ومن أنكرها أو اختلف حولها يعد كافرًا .

فمن قال بأن الصلوات المفروضة أربع أو ثلاثة أو أن العصر ثلاث ركعات . أو الصيام عشرون يوما فى رمضان . فهو بهذا كافر لأنه أنكر ما علم من الدين بالضرورة .

ب – **وأما فروع هذا القسم** : فمثل القنوت فى صلاة الصبح ، أو وضع اليدين على الصدر فى الصلاة ، أو تحريك الأصبع فى التشهد ، أو جواز إخراج قيمة زكاة الفطر ، . . إلخ .

فهذه الفروع الاختلاف فيها وحولها معفو عنه ، بل هو من الرحمة التى قيل عنها (اختلاف الأئمة رحمة بالأمة) .

والاختلاف فى هذه الفروع كان سببًا فى ظهور المذاهب الفقهية ، كما أن الاختلاف حول هذه المسائل الفرعية كان لا يفسد للود قضية .

لهذا كنا نجد الإمام مالك يثنى خيرًا على أبى حنيفة والشافعى يقول عن مالك (إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب) ، والإمام أحمد بن حنبل يقول عن الشافعى حين سأله ابنه عبد الله : ماكان الشافعى يا أبتاه ؟ فقال الإمام أحمد : (كان الشافعى شمس الدنيا وعافية الناس) وكان رضى الله عنه يمسك بخطام بغلة الإمام الشافعى ، وحين عوتب فى ذلك قال : (ومن أراد العلم فعليه بذنب الشافعى) فكلهم من رسول الله ملتمس كما قال الشاعر .

وعلامة ضيق الأفق : الوقوف على مثل هذه المسائل ، ومحاولة تخطئة الآخر ورميه بالفسوق أو حتى الكفر ، فى الوقت الذى نرى فيه الأفذاذ من العلماء من أمثال الشافعى يقول : (رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب) .

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على نصوص الكتاب والسنة ، ثم سرد بعض معطيات العلم الحديث خاصة فى مجال إثبات وجود الله وقدرته وعلمه . وقد بعدت قدر الإمكان عن ذكر المسائل الخلافية إلاّ ماتدعو إليه الضرورة .

كما أننى التزمت منهج أهل السنة والجماعة المعتمد على الكتاب والسنة ، وأما ترتيب مباحث هذا الكتاب فقد رتبته على غرار ماجاء فى حديث رسول الله ﷺ الذى عرَّف به الإيمان وحصره فى ستة أركان . وقد وضعت هذه الأركان الستة فى

عناصر ثلاثة رئيسة : هى الإلهيات والتى اشتملت على الإيمان بالله والإيمان بالقدر . والنبوات : والتى اشتملت على الإيمان بالملائكة ، والكتب والرسل ، والأمور الأخروية : وتشمل الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث ، وحساب ، وصراط ، وجنة ونار ، ورؤية الله عز وجل ، وهى خاتمة هذا الكتاب إذ هى غاية كل مؤمن ومنتهى سعادة كل فرد .

هذا وقد صدرت هذا الكتاب ببعض المقدمات العامة التى يلزم معرفتها قبل الدخول فى صلب هذا الكتاب .

وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يعد علينا بصفحه الجميل عن زلاّتنا ، وأن يكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ، وأن يثبتنا على الحق الذى ثبت عليه رسول الله وأصحابه . كما أسأله أن يجعل هذا الجهد المتواضع خالصًا لوجهه الكريم .

دكتور
عبد العزيز المرشدى

المنصورة ١ / ٣ / ٢٠٠٦ م .

الفصل الأول
مقدمات عامة

** تعريف العقيدة .

** أسماء علم العقيدة .

** خصائص العقيدة الإسلامية .

** أركان العقيدة .

** الإيمان والإسلام .

تعريف العقيدة

◻ **العقيدة لغة** : مأخوذة من العَقْد وهو الربط والشد بقوة ، ومنه الإحكام والإبرام .

ويطلق على العهد وتأكيد اليمين (عَقْد) ، وما عقد الإنسان عليه قلبه جازمًا به فهو عقيدة .

◻ **العقيدة اصطلاحًا** : تطلق العقيدة ويراد بها ما يعتقده الإنسان ويؤمن به سواء كان موضوع الإيمان هذا حقًا أم باطلاً . ولهذا عرف العلماء العقيدة مطلقًا بأنها الإيمان الجازم والحكم القاطع الذى لا يتطرق إليه الشك فى نفس المعتقد .

وأما العقيدة الإسلامية . فهى الإيمان الجازم بكل ماورد عن الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

❋ ❋ ❋

أسماء علم العقيدة

لعلم العقيدة أسماء كثيرة مترادفة ، تختلف هذه الأسماء بين أهل السنة وغيرهم . من هذه الأسماء :

١ – علم التوحيد . وذلك لأن التوحيد أشرف موضوعاته .

٢ – علم أصول الدين . والأصول هي أركان الإيمان ، وذلك في مقابلة فروع الدين .

٣ – علم الفقه الأكبر . وذلك في مقابلة الفقه الأصغر ، وهو الأحكام الشرعية .

٤ – علم العقيدة . والاعتقاد . وذلك في مقابلة علم الشريعة .

٥ – علم الكلام . وهو إطلاق شائع عند علماء الكلام ، وذلك إما لأن كلام الله أهم مباحثه ، أو لأنه يكسب الإنسان قدرة على الكلام ، أو لأن العلماء كانوا يصدرون مباحثهم بالكلام في كذا .

٦ – علم الالهيات . وهو إطلاق شائع لدى الفلاسفة خاصة .

٧ – علم الميتافيزيقا أو ماوراء الطبيعة . وهو عند الفلاسفة أيضا .

❁ ❁ ❁

خصائص العقيدة الإسلامية

للعقيدة الإسلامية خصائص وسمات تميزها عما عداها من سائر العقائد الأخرى منها :

١ – سلامة المصدر .

وذلك لأنها تعتمد على الكتاب والسنة الصحيحة ، وأما العقل فإن دوره قاصر على الترتيب والتبويب دون التدخل فى أصول المصدر ، وكذلك لاتؤخذ العقيدة من أقوال أحد مهما كانت منزلته ومكانته .

والقرآن الكريم محفوظ من التحريف بحفظ الله له ، والسنة النبوية قام العلماء المختصون بغربلتها حتى تبين الصحيح من الضعيف ، ولذا كان الكتاب والسنة الصحيحة هما المصدرين للعقيدة .

٢ – قيام العقيدة على مبدأ التسليم لله ولرسوله :

لأن أمر العقائد أمر غيبى والله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه ، ورسول الله ﷺ أعلم الناس بالله ، وبما يجب له وما يجوز وما يستحيل ، والغيب لاتدركه العقول ، وليس لنا إلا التسليم لله ولرسوله ﷺ .

٣ – موافقتها للفطرة السليمة والعقل الصريح :

فالعقيدة الإسلامية من خصائصها أنها رغم اعتمادنا فيها على التسليم المطلق لله ولرسوله إلا أنها متناسقة مع الفطرة التى فطر الله

الناس عليها ، ومتوافقة مع العقل السليم .

وعلى الرغم أيضا من أنها قد يكون بها بعض الأصول التى قد يقف عندها العقل لكن مع ذلك لا يحيلها مثل المعجزات ، والكرامات ، والملائكة . ولهذا قال العلماء : إن الشرع قد يأتى بمحارات للعقول ، ولكن لا يأتى بمحالات للعقول .

فالعقل قد يحار أمام بعض المسائل لكنه لا يحيلها ، ولهذا فإن ابن تيمية قد قال بموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، ودرأ تعارض العقل والنقل .

٤ – عدم الاضطراب والتناقض :

فهى عقيدة سالمة من التناقض لاعتمادها على مبدأ وأصل واحد وهو الوحى ، والذى أنزل الوحى لا يضل ولا ينسى ، ولذا فإن الناظر لأصولها لا يلحظ فيها أدنى اضطراب .

وإذا فرض ووقف عند بعض النصوص التى يوهم ظاهرها التعارض فإنه سريعاً مايزول وتسلم النصوص من الاضطراب والتناقض .

وصدق الله القائل عن المنهج الحافظ للعقيدة : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝ ﴾ [١] .

---

(١) سورة النساء : آية ٨٢ .

٥ – الوضوح والبيان :

تمتاز العقيدة الإسلامية بالوضوح ، والبيان ، وعدم التعقيد والغموض ، بخلاف العقائد الأخرى التى نجد من أهم بنودها : اعتقد ولا تسأل ، وإن هذه العقيدة للاعتناق وليست للاقتناع .

ولا يقال : أن العقيدة الإسلامية لا مجال للعقل فيها فهى إذًا غير واضحة لأنا نقول : فرق بين أن يتدخل العقل فى أصل العقيدة وهذا هو الممنوع ، وبين أن ينظر العقل إلى أصولها فلا يجد تعارضا . فالعقل كالدابة توصلك إلى السلطان ولا تدخل بها على السلطان .

أما العقائد الأخرى فإنه لا مجال للعقل فيها ، ومع ذلك فإن أصولها تتناقض وتتعارض معه ، كمن قالوا وحدة فى تثليث ، وتثليث فى وحدة . ولذا قالوا : هذه العقيدة للاعتناق وليس للاقتناع .

❋ ❋ ❋

أركان العقيدة

إن أى عقيدة صحيحة لابد لها من أركان ثلاثة رئيسة :

الركن الأول : الآلهيات . وهى الأمور المتعلقة بذات الله وتوحيده ، وربوبيته ، وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله سبحانه وتعالى وما يتعلق بذلك مثل القضاء والقدر .

الركن الثانى : النبوات . وهى متعلقة بالواسطة بين الله والبشر ، ويدخل فى نطاقها الكلام عن الرسل والأنبياء ، والملائكة ، والكتب السماوية ، والمعجزة . . . إلخ .

الركن الثالث : الأمور الأخروية . وهى متعلقة باليوم الأخر ، وما يحدث فيه من جنة ونار ، وصراط وميزان ، ونفخ فى الصور ، وأيضا عذاب القبر ونعيمه . . . إلخ .

وإن من يتأمل هذه الأركان يجد أنها تحاول الإجابة على أسئلة أثارها العقل الإنسانى ، وهى من أين أتينا إلى هذه الدنيا ؟ ولماذا أتينا ؟ وإلى أين نذهب ؟

فجاءت العقيدة لتقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ . وتقول كما قال الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] فالأصل فى وجودنا هو الله ، وخلقنا للعبادة على منهج الرسل . وسوف نرجع

---

(١) سورة الذاريات : آية ٥٦ .

إلى الأصل ليحاسبنا على مافعلنا .

ومن يفكر فى قصة موسى عليه السلام يجد أن أول لقاء له مع الحق سبحانه وتعالى ، قد ذكره الله بهذه الأركان الثلاثة .

☜ **الآلهيات** : . فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ (١) .

☜ **النبوات** : وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ . طه : ٤٧ .

☜ **والأمور الأخروية** : وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢) .

كما أن من الملاحظ أن رسول الله ﷺ قد ذكر هذه الأركان الثلاثة تحتُ مسمى الأيمان . وذلك حين سأله جبريل (ما الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره) .

فالإيمان بالله ، والإيمان بالقدر يندرجان تحت قضايا الألوهية

والإيمان بالملائكة ، والكتب والرسل يندرج تحت النبوات .

وأما الإيمان باليوم الآخر فهو يندرج تحت الأمور الأخروية .

---

(١) سورة طه : آية ١٤ .

(٢) سورة طه : آية ١٥ .

مفهوم الإيمان والإسلام

لقد ثار النزاع قديمًا وحديثًا حول مفهوم الإيمان والإسلام وعلاقة كل منهما بالآخر . ذلك أن هناك بعض الآيات التى يشير ظاهرها إلى اختلاف المعنيين وآيات تدل على أن كلاً منهما يسد مسد الآخر .

ولتوضيح هذا الأمر سوف نذكر معنى الإيمان والإسلام اللغويين ، ثم نتبع ذلك بذكر المعنى الاصطلاحى . ثم نذكر وجه العلاقة بينهما وآراء العلماء فى ذلك .

☜ **الإسلام لغة** : يعنى الاستسلام . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الصافات : ١٠٣ . كما يعنى الإخلاص تقول : سلم هذا الشيئ لفلان أى خلص له . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ آل عمران : ١٩ .

☜ **وفى الاصطلاح** : فإن الإسلام هو الامتثال الظاهرى والعمل بكل ماجاء به النبى ﷺ .

والعلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى علاقة عموم وخصوص . ذلك أن المعنى اللغوى يشمل كل دين سماوى من آدم إلى محمد ﷺ . وإن شئنا قلنا إنها العلاقة بين الصفة واسم العلم .

فالإسلام بمعنى الاستسلام هو ماصرح به الأنبياء جميعًا .

فهو دين نوح حيث قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس : ٧٢ .

وهو دين ابراهيم حيث قال الله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ آل عمران : ٦٧ .

هو دين اسماعيل حيث قال مع أبيه : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ البقرة : ١٢٨ .

وهو دين يعقوب وأولاده : ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ البقرة : ١٣٢ .

وهو دين موسى حيث قال : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ يونس : ٨٤ .

وهو دين يوسف حيث قال : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يوسف : ١٠١ .

وهو دين سليمان ومعه بلقيس حيث قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ النمل : ٤٤ .

وهو دين عيسى والحواريون حيث قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ

بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ آل عمران : ٥٢ .

وهكذا فالأنبياء جميعا يدينون بالإسلام بمعنى أنهم يتصفون بالاستسلام والإخلاص له .

وأما الدين الذى أتى به محمدًا ﷺ من عند الله عز وجل فإن الإسلام صار علمًا عليه واسمًا له . هذا فى الوقت الذى يستسلم أصحابه لله ويخلصون له فيه ، فهو أيضا صفة له ولأصحابه كما كان صفة للأنبياء قبله . قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة : ٣ . وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ الأنعام : ١٢٥ .

وبالمثال يتضح المقال .

من المعلوم أن يوسف عليه السلام كان كريمًا وكذا يعقوب وإسحاق عليهم جميعًا السلام . وحاتم الطائى كان كريمًا . ورسول الله كان كريمًا ، وكل هؤلاء كان الكرم صفة لهم مع اختلاف الأسماء .

أما أن يكون إنسان اسمه كريم وهو متصف بالكرم . فهذا هو الفرق بينهما .

اليهود مسلمون . بمعنى أنهم اتصفوا بالاستسلام . واليهودية علمٌ عليهم . والنصارى مسلمون بمعنى أنهم اتصفوا بالاستسلام .

والنصرانية علم عليهم . والمسلمون : مسلمون بمعنى أنهم اتصفوا بالاستسلام والإسلام فى ذات الوقت علم عليهم .

☜ **والإيمان فى اللغة** : بمعنى التصديق . كما قال تعالى عن أخوه يوسف : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يوسف : ١٧ .

وبمعنى طلب الأمان كما قال تعالى عن النبى : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . التوبة : ٦١ . يطلب الأمان لهم

☜ **والإيمان فى الاصطلاح** : هو الإقرار بكل ماجاء به محمد ﷺ من أوامر ونواهى . وهو يعنى الإسلام شرعًا . غاية مافى الأمر أنه يتجه فى الغالب نحو الباطن ، بينما الإسلام يتجه فى الغالب نحو الظاهر . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ النور : ٦٢ . (وهذا عمل باطنى) ﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ (وهذا عمل ظاهر) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ .

وهو يزيد وينقص . يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . ولا ينتفى الإيمان إلا بانتفاء مادخل به العبد فى الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ الأنفال : ٢ .

آراء العلماء فى العلاقة بين الإسلام والإيمان :

١ – هناك بعض العلماء من يرى أنه لا فرق بين الإسلام والإيمان فهما وإن اختلفا لفظًا فقد اتحدا معنى . **واستدلوا بما يأتى :**

أولاً : لو كانا متغايرين لأمكن وجود أحدهما بدون الآخر على معنى أن يوجد مسلم ليس بمؤمن ، ومؤمن ليس بمسلم .

ثانيًا : لو كانا متغايرين لم يصح استثناء أحدهما من الآخر واللازم باطل . لقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الذاريات : ٣٥ – ٣٦ .

ثالثًا : لو كانا متغايرين لم يسق أحدهما مساق الآخر . كما قال تعالى : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ النمل : ٨١ .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ آل عمران : ١٠٢ .

٢ – هناك بعض العلماء من يرى أن الإسلام مغاير للإيمان . ذلك أن الإسلام يعنى الامتثال الظاهرى لأوامر الشرع ونواهيه ، وأما الإيمان فهو الانقياد الباطنى . فالإسلام عمل الجوارح والإيمان عمل القلب . إلا أنهما متلازمان فى الشرع . فلا يوجد إيمان مقبول بدون عمل ، كما لايوجد اسلام مقبول بدون إيمان .

ولهم أدلة على ذلك منها :

١ – لو كانا متحدين ماصح إثبات أحدهما ونفى الآخر . كما قال الله : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات : ١٤ .

٢ – لو كانا متحدين ماجاز عطف أحدهما على الآخر لأن العطف يقتضى المغايرة . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ الأحزاب : ٣٥ .

٣ – ماروى عن الرسول أن أجاب جبريل عن الإيمان بأنه : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر . .) وعن الإسلام بأنه (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت) وهذا يدل على اختلافهما .

والحقيقة أن من ينظر إلى أدلة كل فريق يرى أن الاختلاف إنما جاء من الخلط بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى .

فالإسلام فى اللغة أشمل وأعم من المعنى الاصطلاحى كما سبق .

فحين قالت الأعراب آمنا وكذّبهم القرآن بأنهم لم يؤمنوا وإنما استسلموا ظاهرًا فقط ، والإسلام الحقيقى يشمل الاستسلام ظاهرًا

وباطنًا ، وإجابة النبى ﷺ لاتدل على تغاير فى الحقيقة لأن جبريل عليه السلام ماكان له أن يسأل عن إسلام لا ينجى صاحبه من النار بأن الإسلام حين يعرف بأنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . . إلخ لا يعنى إقامتها دون أخلاص لله .

والإيمان حين يعرف بأنه أن تؤمن بالله ليس معناها ألا نشهد بوحدانية الله . فالعلاقة وثيقة بين الإسلام والإيمان غاية مافى الأمر أنهما حين يذكرا معًا فما ذلك إلا للإخبار بمحل عمل الشُعب التى أخبر عنها النبى ﷺ بأنها بضع وستون شعبة . .

فإن كان عمل الجوارح كان إسلامًا . وإن كان عمل القلوب كان إيمانًا . بدليل أن النبى ﷺ جعل إماطة الأذى عن الطريق وهو عمل اليد من أركان الإيمان .

أما حين يذكر أحدهما منفردًا فإنه يسد مسد الآخر . معنى ذلك أنهما حين يفترقان يجتمعان . أما حين يجتمعان معًا يفترقان فى بيان أدوات الأعمال من جوارح أو قلب .

❋ ❋ ❋

الفصل الثانى
وجود الله تعالى

** الأدلة على وجود الله .

** نظريات حديثة حول نشأة العالم والرد عليها .

** دلائل القدرة الإلهية .

** نماذج من عجائب صنع الله .



استدلال القرآن على وجود البارى سبحانه وتعالى

كان من المفروض على الإنسان إلا يجعل وجود خالقه وبارئه محل استدلال وبحث ونظر . وذلك :

** لأن الله أظهر من أن يستدل عليه إذ هو سبحانه الحقيقة الكبرى للوجود فهو سبحانه الوحيد وأجب الوجود ، وما عداه من الموجودات جائزة الوجود . بمعنى أن وجودها مستمد لا من ذاتها بل من وجوده سبحانه وتعالى ، فهو سبحانه أظهر من مخلوقاته .

وليس يصح فى الأذهان شئ ∴ إذا احتاج النهار إلى دليل

** ثُم لأن الأشياء به ظهرت . فما من شئ يبرز إلى الوجود إلا والله سر ظهوره وبروزه ، فكيف نحاول التدليل على من به كل شئ ظهر .

يقول ابن عطاء الله السكندرى :

اعلم أن الأدلة تنصب لمن يطلب الحق لا لمن يشهده . لأن المشاهد غنى بوضوح المشهود عن إقامة الدليل . . . إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك . . . متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك .

ولكن الواقع يقول : إن هناك إناس قد عميت أبصارهم ، وانتكست فطرتهم ، وران على قلوبهم فلم يبق معهم إلا أن ننبههم إلى أن يعودوا إلى الفطرة ، أو ينظروا إلى الآفاق ، وأن يفتحوا أعينهم ليبصروا ، وقلوبهم لينظروا ، وعقولهم ليفكروا .

الدليل الأول : الفطرة الإنسانية

إن القرآن الكريم يقرر فى أكثر من آية : أن الفطرة السليمة مركوز فيها الاعتراف بوجود الخالق سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [1] .

ثم ذكر القرآن الكريم : أن الإقرار بربوبية الخالق والاعتراف به كان منذ بدأ الخلق ، والبشر كانوا مازالوا فى عالم الذر . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ . . . ﴾ [2] .

---

(١) سورة الروم : آية ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٧٢ .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما : (مسح الله على ظهر آدم فخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة وأشهدهم على أنفسهم) .

وإن كنت أزعم أن هذا الميثاق الذى أخذه الله على البشرية كان قبل خلق آدم عليه السلام لأن منطوق الآية يقول : ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ولم يقل من ظهره .

وإن هذا الإشهاد إنما كان والخلق فى عالم الغيب لم يظهروا إلى الشهادة ، ونحن نعلم أن الكون له وجودان . وجود فى عالم الغيب ووجود فى عالم الشهادة . والوجود فى عالم الشهادة " قيل عنه (أشياء يبديها ولا يبتديها) ، ويمكن أن نلمح ذلك من قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [1] فالشيئ لا يكون شيئا إلا إذا كان له وجود بوجه ما فإذا أراد الله ظهوره قال له كن فيظهر ويبرز إلى عالم الشهادة . يقول النبى ﷺ : (كان الله ولم يكن شيئ قبله وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السماوات والأرض وكتب فى الذكر كل شيئ) .

لكن مايهمنا أن الإقرار بوجوده سبحانه قد وضع فى الفطرة الإنسانية قبل ظهور البشر ، وأن الإنكار دليل انتكاسة هذه الفطرة

---

(١) سورة يس : آية ٨٢ .

وانحرافها عن مسارها الطبيعى .

وأسباب انحراف الفطرة يكمن فى ثلاثة :

١) **الشياطين** . فالشيطان سبب قوى لانحراف الفطرة كما قال الحق سبحانه فى حديثه القدسى : (خلقت عبادى حنفاء وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم . . .) .

٢) **الأبوان وما يقوم مقامهما مثل البيئة والمجتمع** . كما قال النبى ﷺ : (مامن مولود إلا يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) .

٣) **الغفلة** : كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [1] .

والفطرة هذه هى السر وراء الظاهرة التى تقول : إن كل المجتمعات البشرية لم تخلوا يوماً من دين مهما كان هذا الدين . وأنه حيث يوجد مجتمع فلابد له من دين ، ولهذا يقول عباس محمود العقاد :

(إن فى النفس جوع إلى التدين كما أن للمعدة جوع إلى الطعام) .

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٢ .

والقرآن الكريم يذكِّر الإنسان بفطرته الأولى ليعود إلى حالته الصحية قبل طريان الشبهات عليه ، وانحراف فطرته . وهذا هو السر فى تكرار لفظ (يتذكرون) (وإنما أنت مذكر) ، (وإن هذه تذكرة) ، (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) .

الشدة دائما تظهر الفطرة :

لقد قرر القرآن الكريم أن الإنسان إذا ماوقع فى شدة فإن هذه الشدة تزيل ما علق بالفطرة من شوائب فتصفيها ليتجه الإنسان – حتى ولو كان ملحدًا – إلى الحق سبحانه وتعالى . فكم من ملحد عرف خالقه ورجع إليه عندما أحيط به ، وكم من مشرك أخلص لله دينه عندما نزلت به نازلة . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] .

وكم سمعنا وقرأنا أخبارًا عن إناس اتجهوا إلى الحق سبحانه وصفت فطرتهم واختفى الإلحاد الذى نادوا به طوال عمرهم وضجت ألسنتهم بالدعاء إلى مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترونه .

---

(١) سورة يونس : آية ٢٢ .

وقد سمعت أحد أخواننا يقول عن أحد الشيوعيين الذين كانوا لا يؤمنون بوجود الله عندما سقط عليهم أحد جدران المعتقل أنه كان أسبق إلى دعاء الله قائلاً : " أستر يارب " ورددها أكثر من مرة .

لكن قلة من هؤلاء الذين يدعون الله وقت الشدائد يعودون إلى ماكانوا عليه من إلحاد وكفر . كما قال الله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

ثم انظر إلى تصوير القرآن لخسة ودناءة هؤلاء حين ينكرون الجميل وينسون المعروف : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

❐ كثير من المشركين كانوا يقرون بوجود الله :

هذا ولئن كانت هناك فئة ضالة وحفنة من أوباش العرب لم يؤمنوا بالله خالقاً ورازقاً ، وهؤلاء يطلق عليهم (الدهرية) وهم الذين كانوا ينادون بأن الدهر هو المحى والمميت . وأن الطبائع هى الفاعلة (وإن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع) .

وهؤلاء هم الذين سخروا من رسول الله ﷺ حين قال : (إنكم

(١) سورة العنكبوت : آية ٦٥ .
(٢) سورة يونس : آية ١٢ .

ستموتون كما تنامون ، وستبعثن كما تستيقظون ، وستجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءًا) فقال أحدهم لزوجته :

ويخبرنا الرسول بأن سنحيا ∴ حديث خرافة يا أم عمرو

وهؤلاء هم الذين أخبر عنهم القرآن بقولهم : ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ السجدة : ١٠ . وقال ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ ﴾ [1] .

ولكن يلاحظ على هذه الفئة أنها لا تعتمد حتى على أدنى حجة عقلية اللهم إلا الاستبعاد والاستغراب .

لكن الغالبية العظمى كانوا يقرون بالله خالقًا ورازقًا وحياً ومميتا ، وأنهم إنما اتخذوا آلهتهم التى كانوا يعبدونها لتوصلهم إلى الله الذى هو رب الأرباب جميعا ، كما قال القرآن عنهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [2] .

فالوثنية العربية لم تكن إلحادًا ، ولكنها طريق منحرف فى

---

(١) سورة المؤمنون : آية ٣٥ : ٣٧ .

(٢) سورة الزمر : آية ٣ .

التعبد. قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (1) .

وقال أيضا : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (2) .

وقال أيضا : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (3) .

وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (4) .

---

(1) سورة يونس : آية ٣١ .

(2) سورة المؤمنون :آية ٨٤ – ٨٩ .

(3) سورة العنكبوت : آية ٦١ .

(4) سورة الزخرف : آية ٨٧ .

الدليل الثانى : دلالة الصنعة على الصانع

يحتج القرآن على المكذبين المنكرين بحجة لابد للعقول من الإقرار بها ، ولا يجوز فى منطق العقل السليم رفضها ، يقول تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ ﴾ الطور : ٣٥ – ٣٦ .

يقول لهم أنتم موجودون هذه حقيقة لاتنكرونها ، وكذلك السموات والأرض موجودتان ، ولاشك .

وقد تقرر فى العقول أن الموجود لابد من سبب لوجوده ، وهذا يدركه راعى الإبل فى الصحراء ، فيقول : " البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، ألا تدل على العليم الخبير " . ويدركه كبار العلماء الباحثين فى الحياة والأحياء .

وهذا الذى أشارت إليه الآية هو الذى يعرف عند العلماء باسم : (قانون السببية) . هذا القانون يقول : إن شيئًا من (الممكنات) " لايحدث بنفسه من غير شئ " ؛ لأنه لايحمل فى طبيعته السبب الكافى لوجوده ، " ولا يستقل بإحداث شئ " ؛ لأنه لايستطيع أن يمنح غيره شيئًا لايملكه هو .

مثال ذلك : منذ سنوات تكشفت الرمال فى صحراء الربع

الخالى إثر عواصف هبت على المنطقة عن بقايا مدينة كانت مطموسة فى الرمال ، فأخذ العلماء يبحثون عن محتوياتها ويحاولون أن يحققوا العصر الذى بنيت فيه ، ولم يتبادر إلى ذهن شخص واحد من علماء الآثار أو من غيرهم أن هذه المدينة وجدت بفعل العوامل الطبيعية من الرياح والأمطار والحرارة والبرودة لا بفعل الإنسان .

ولو قال بذلك واحد من الناس لعده الناس مخرفًا يستحق الشفقة والرحمة ، فكيف لو قال شخص ما : إن هذه المدينة تكونت فى الهواء من لا شئ فى الأزمنة البعيدة ، ثم رسبت على الأرض ؟ إن هذا القول لايقل غرابة عن سابقه ، بل يفوقه .

لماذا ؟ لأن العدم لايوجد شيئا ، هذا أمر مقرر فى بدائه العقول ، ولأن الشئ لايستطيع أن يوجد نفسه .

والمدينة على النحو الذى نعرفه لابد لها من موجد ، والفعل يشى ، ويعرّف بصانعه ، فلابد أن تكون المدينة صناعة قوم عقلاء يحسنون البناء والتنسيق .

ولو رأينا إنسانًا انتقل من أسفل بناية إلى أعلاها فلا نستنكر ذلك ، ولا نستغربه ، لأن الإنسان لديه القدرة على ذلك .

فإذا رأينا حجرًا كان فى ساحة البناية قد انتقل إلى أعلاها ، فإننا نجزم بأنه لم ينتقل بنفسه ، بل لابد من شخص رفعه ونقله ؛

لأن الحجر ليس لديه خاصة الحركة والصعود .

ومن الغريب أن الناس يجزمون بأن المدينة لايمكن أن توجد من غير موجد ، ولا يمكن أن تبنى نفسها ، ويجزمون بأنه لابد للحجر من شخص صعد به إلى أعلى ، ولكن يوجد فيهم من يجيز أن يصنع الكون من غير صانع ، ويوجد من غير موجد ، مع أن بناء الكون أشد تعقيدًا وأعظم ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ غافر : ٥٧ .

ولكن المنكرين عندما يواجهون بذلك بمنطق علمي يخاطب العقل ، ولا يستطيعون إلا أن يقروا أو يكابروا .

وبهذا الدليل كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين ، فهذا أحد العلماء يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق ، فيقول لهم : ما تقولون فى رجل يقول لكم : رأيت سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة من الأنفال ، قد احتوشتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز فى العقل ؟

قالوا : هذا شيئ لايقبله العقل .فقال ذلك العالم : ياسبحان الله إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ،

وتغير أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ ؟! فبكوا جميعا ، وقالوا : صدقت وتابوا .

هذا القانون الذى سلمت به العقول وانقادت له هو الذى تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ وهو دليل يرغم العقلاء على التسليم بأن هناك خالقًا معبودًا ، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة ، فلا تكاد الآية تلامس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها .

روى البخارى فى صحيحه عن جبير بن مطعم قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ الطور : ٣٥ – ٣٧ . كاد قلبى أن يطير " . [١]

قال البيهقى : قال أبو سليمان الخطابى : " إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية ، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة ، فاستدركها بلطيف طبعه ، واستشف معناها بزكي فهمه . . . " [٢]

---

(١) صحيح البخارى : ٨ / ٦٠٣ ورقمه ٤٨٥٤ .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ١ / ٣٩١ .

واختار الخطابى فى معنى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ " أم وجدوا بلا خالق ، وذلك مالا يجوز أن يكون ، لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الأمر ، فلابد له من خالق ، فإذ قد أنكروا الإله الخالق ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم ، أفهم الخالقون لأنفسهم ؟ وذلك فى الفساد أكثر وفى الباطل أشد ، لأن مالا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفًا بالقدرة ، وكيف يخلق ؟ وكيف يتأتى منه الفعل ، وإذا بطل الوجهان معًا قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا ، فليؤمنوا به .

ثم قال : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ وذلك شئ لايمكنهم أن يدعوه بوجه فهم منقطعون والحجة قائمة عليهم .

وهذا الذى قرر الخطابى أن الكفار لايمكن أن يدعوه فائدة ذكره والسؤال عنه قطع الحجاج والخصام ؛ إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول : " أنا خلقت نفسى " كما زعم مثيل له من قبل بأنه يحيى ويميت ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ البقرة : ٢٥٨ .

فماذا كان الجواب ؟ سؤال آخر أبان عجزه وأكذبه فى زعمه الأول ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ فكانت النتيجة ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

وهنا هب شخصًا قال : " أنا خلقت نفسى " فهل يستطيع أن يزعم أنه خلق السموات والأرض ؟! فإذا كان العدم لايوجد سماء ولا أرضا ، وإذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما ، وإذا كان هؤلاء لايستطيعون الادعاء بأنهم أوجدوا ذلك كله ، فإنه لابد لهذا كله من موجد ، وهذا الموجد هو الله سبحانه وتعالى .

موقف العلوم التجريبية من هذا القانون :

إن طاقة البشر ، وطبيعة المخلوق ، أعجز من أن تحصى مراحل الأسباب مرحلة مرحلة ، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة ، حتى تشهد بداية العالم ، ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء ، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة ، وكان قصارها أن تخطو خطوات معدودة إلى الوراء ، تاركة مابعد ذلك إلى ساحة الغيب التى يستوى فى الوقوف دونها العلماء والجهلاء .

ولكن هذا اليأس الإنسانى من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً فى ماضيها ومستقبلها ، يقابله يقين إجمالى ينطوى كل عقل على الاعتراف به طوعًا أو كرهًا ، وهو أنه مهما طالت الأسباب الممكنة ، وسواء أفرضت متناهية أو غير متناهية ، فلابد لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شئ آخر يحمل فى نفسه سبب وجوده وبقائه ، بحيث يكون هو الأول الحقيقى الذى ليس قبله شئ وإلا لبقيت كل هذه الممكنات فى طى الكتمان (إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل) .

نظريات حديثة حول نشأة العالم

١ – نظرية القول بالصدفة :

بعد توضيح الأدلة القرآنية التى تخاطب العقـول ، وتلزمهـا بالاعتراف بوجود الخالق المعبود ، يبدو القول إن هذا الكون خلـق مصادفة من غير خالق ليس قولاً بعيدًا عن الصواب فحسب ، بـل قول بعيد عن المعقول يدخل صاحبه فى عداد المخرفين الذين فقدوا عقولهم أو كادوا ، فهم يكابرون فى الدليل الذى لايجد العقل بداً من التسليم به .

لقد وجد من يقول : " لو جلست ستة من القـردة علـى آلات كاتبة ، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبتها قـصيدة مـن قـصائد شكسبير ، فكذلك الكون الموجود الآن ، إنما وجد نتيجـة لعمليـات عمياء ، ظلت تدور فى " المادة " لبلايين السنين " .

يقول وحيد الدين خان [١] بعد نقله لهـذه الفقـرة مـن كـلام (هكسلى) [٢] : " إنَّ أىّ كلام من هذا القبيل لغو بكل ماتحويه هذه

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٦٦ .

(٢) (هكسلى) هو الكاتب الملحد الذى كتب كتابه المعروف (الإنسان يقوم وحـده) ، فسخر الله عالما من الغرب أيضا هو (أ . كريستى موريسون) رئـيس أكاديميـة العلوم بنيويورك وعضو سابق فى المجلس التنفيـذى لمجلـس البحـوث القـومى بالولايات المتحدة ، فسطر كتابه القيم (الإنسان لا يقوم وحده) ردًا على (هكـسلى) وقد ترجم هذا الكتاب تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) .

الكلمة من معانٍ ، فإنَّ جميع علومنا تجهل – إلى يوم الناس هذا – أية مصادفة أنتجت واقعًا عظيمًا ذا روح عجيبة ، في روعة الكون " .

وينقل عن عالم آخر إنكاره لهذه المقالة قوله " إن القول إن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقى شبيه فى مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفى يقع فى مطبعة " .

ويقرر وحيد الدين خان : " أن الرياضيات التى تعطينا نكتة المصادفة ، هى نفسها التى تنفى أى إمكان رياضى فى وجود الكون الحالى بفعل قانون المصادفة " .

وخذ هذا المثال الذى نقله وحيد الدين خان عن العالم الأمريكى (كريستى موريسون) يبين فيه استحالة القول بوجود الكون مصادفة .

قال : " لو تناولت عشرة دراهم ، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة ، ثم رميتها فى جيبك ، وخلطتها جيدًا ، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددى بحيث تلقى كل درهم فى جيبك بعد تناوله مرة أخرى ، فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد فى المحاولة الأولى هو واحد فى العشرة ، وإمكان أن نخرج الدراهم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) بالترتيب من

(١ – ١٠) بالترتيب واحد فى عشرة بلايين " . [١]

وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق ؟ إن حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خياليا يصعب حسابه فضلاً عن تصوره .

إن كل مافى الكون يحكى أنه إيجاد موجد حكيم عليم خبير ، ولكن الإنسان ظلوم جهول ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ **عبس** : ١٧ – ٢٩ .

كيف يمكن أن تتأتى المصادفة فى خلق الإنسان وتكوينه ، وفى صنع طعامه على هذا النحو المقدر الذى تتشارك فيه الأرض والسماء ، وصدق الله فى وصفه للإنسان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ الأحزاب : ٧٢ .

---

(١) انظر : العلم يدعو إلى الإيمان ص ٥١ .

٢ – نظرية القول بالطبيعة الخالقة :

وهذه فرية راجت في عصرنا هذا ، راجت حتى على الـــذين نبغوا في العلوم المادية ، وعلل كثيرون وجود الأشـــياء وحـــدوثها بها ، فقالوا : الطبيعة هي التي توجد وتحدث .

وهؤلاء نوجه لهم هذا السؤال : ماذا تريدون بالطبيعة ؟ هـــل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء ؟ أم تريدون بها الـــسنن والقـــوانين والضوابط التي تحكم الكون ؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هـــذا الكون أوجدته وأبدعته ؟

إذا قالوا : نعني بالطبيعة الكون نفسه ، فإننا لانحتاج إلى الرد عليهم ، لأن فساد قولهم معلوم مما مضى ، فهـــذا القـــول يـــصبح ترديدًا للقول السابق إن الشئ يوجد نفسه ، أي إنهم يقولون الكـــون خلق الكون ، فالسماء خلقـــت الـــسماء والأرض خلقـــت الأرض ، والكون خلق الإنسان والحيوان ، وقد بينا أن العقل الإنساني يرفض التسليم بأن الشئ يوجد نفسه ، ونزيد الأمر إيضاحًا فنقول : والشئ لايخلق شيئًا أرقى منه ، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لاتملك عقلاً ولا سمعًا ولا بصرًا ، فكيف تخلق إنسانًا سميعًا عليمًا بصيرًا ! هذا لا يكون .

فإن قالوا : خلق ذلك كله مصادفة ، قلنا : ثبت لدينا يقينًـــا أن لامصادفة في خلق الكون ، وقد تبينا ذلك فيما سبق .

٣ ـ نظرية التولد الذاتى : (شبهة ثبت بطلانها) :

وكان مما ساعد على انتشار الوثنيـة الجديـدة (القـول إن الطبيعة هى الخالق) هو ماشاهده العلماء الطبيعيـون مـن تكـون (دود) على براز الإنسان أو الحيوان ، وتكون بكتريا تأكل الطعام فتفسده ، فقالوا : ها هى ذى حيوانات تتولد من الطبيعة وحدها .

وراجت هذه النظرية التى مكنت للوثن الجديد (الطبيعة) فى قلوب الضالين التائهين بعيدًا عن هدى الله الحق ، لكن الحق مالبث أن كشف باطل هذه النظرية على يد العـالم الفرنـسى المـشهور (باستير) الذى أثبت أن الدود المتكون ، والبكتريا المتكونة المشار إليها لم تتولد ذاتيًا من الطبيعة ، وإنما من أصول صغيرة سابقة لم تتمكن العين من مشاهدتها ، وقام بتقديم الأدلة التى أقنعت العلمـاء بصدق قوله ، فوضع غذاء وعزله عن الهواء ، وأمـات البكتريـا بالغليان ، فما تكونت بكتيريا جديدة ، ولم يفـسد الطعـام ، وهـذه النظرية التى قامت عليها صناعة الأغذية المحفوظة (المعلبات) [١]

الطبيعة هى القوانين التى تحكم الكون :

ويرى فريق آخر أن الطبيعة هى القوانين التى تحكم الكون ، وهذا تفسير الذين يدعون العلم والمعرفة من القائلين إن الطبيعة هى الخالق ، فهم يقولون : إن هذا الكون يسير علـى سـنن وقـوانين

---

(١) كتاب التوحيد للشيخ عبد المجيد الزندانى ٢ / ٧٤ .

تسيره وتنظم أموره فى كل جزئية ، والأحداث التى تحدث فيه تقع وفق هذه القوانين ، مثله كمثل الساعة التى تسير بدقة وانتظام دهرًا طويلاً ، فإنها تسير بذاتها بدون مسير .

وهؤلاء فى واقع الأمر لايجيبون عن السؤال المطروح : من خلق الكونْ ؟ ولكنهم يكشفون لنا عن الكيفية التى يعمل الكون بها ، هم يكشفون لنا كيف تعمل القوانين فى الأشياء ، ونحن نريد إجابة عن موجد الكون وموجد القوانين التى تحكمه .

يقول وحيد الدين خان : " كان الإنسان القديم يعرف أن السماء تمطر ، لكننا اليوم نعرف كل شئ عن عملية تبخر الماء فى البحر حتى نزول قطرات الماء على الأرض ، وكل هذه المشاهدات صور للواقع ، وليست فى ذاتها تفسيرًا لها ، فالعلم لايكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين ؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء عُلى هذه الصورة المفيدة المدهشة ، حتى إن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية .

إن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه ، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة .

إن الطبيعة لاتفسر شيئًا (من الكون) وإنما هى نفسها بحاجة إلى تفسير . واقرأ هذه المحاورة التى يمكن أن تجرى بين رحل

نابه ، وأحد الأطباء الأفذاذ فى عملهم .

السائل : ما السبب فى احمرار الدم ؟

الطبيب : لأن فى الدم خلايا حمراء ، حجم كل خلية منها ١ / ٧٠٠ من البوصة .

السائل : حسنًا ، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء ؟

الطبيب : فى هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين) ، وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين فى القلب .

السائل : هذا جميل ، ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التى تحمل (الهيموجلوبين) ؟

الطبيب : إنها تصنع فى كبدك .

السائل : عجيب ! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها ، بعضها ببعض ارتباطا كليًا وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة ؟

الطبيب : هذا مانسميه بقانون الطبيعة .

السائل : ولكن ماالمراد بقانون الطبيعة هذا ياسيادة الطبيب ؟

الطبيب : المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء

للقوى الطبيعية والكيماوية .

السائل : ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائمًا إلى نتيجة معلومة ؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور فى الهواء ، ويعيش السمك فى الماء ، ويوجد إنسان فى الدنيا ، بجميع مالديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة ؟

الطبيب : لا تسألنى عن هذا ، فإن علمى لا يتكلم إلا عما يحدث ، وليس له أن يجيب : لماذا يحدث ؟

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون . إن مثل الكون كمثل آلة تدور تحت غطائها ، لا نعلم عنها إلا أنها تدور " ولكن لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الآلة بدوائر وتروس كثيرة ، يدور بعضها ببعض ، ونشاهد حركاتها كلها .

هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الآلة بمجرد مشاهدتنا لما يدور بداخلها ؟ كيف يفهم منطقيا أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الآلة جاءت من تلقاء ذاتها ، وتقوم بدورها ذاتيًا ؟ " . [1]

---

(١) الإسلام يتحدى ، لوحيد الدين خان ٢٩ – ٣١ .

الطبيعة قوة :

فإن وجد من يقول إن الطبيعة قوة أوجدت الكون ، وأنها قوة حية سميعة بصيرة حكيمة قادرة . . . فإننا نقول لهم : هذا صواب وحق ، وخطؤكم أنكم سميتم هذه القوة (الطبيعة) ، وقد دلتنا هــذه القوة المبدعة الخالقة ، على الاسم الذى تستحقه وهــو (الله) ، الله عرّفنا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فعلينا أن نسميه بما سمى به نفسه سبحانه وتعالى .

كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم : هؤلاء الذين نسبوا الخلق إلى الطبيعة لهم سلف قالوا قريبا من قولهم ، وهم الدهرية الذين نسبوا الأحداث إلى الدهر ، فقد شاهدوا أن الصغير يكبر ، والكبير يهرم ، والهرم يموت بمرور الزمان ، وتعاقب الليل والنهار ، فنسبوا الحياة والموت إلى الدهر .

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الجاثية : ٢٤ .

اولئك نسبوا الأحداث إلى الزمان ، وهؤلاء إلى ذوات الأشياء فهما صنوان فى الضلال .

٤ – نظرية التطور : [١]

حاول أصحاب هذه النظرية أن يعللوا بها وجود الأحياء ، وقد شاعت هذه النظرية ، وعمل كثيرون على نـشرها بحـسن نيـة ، لظنهم أنها حقيقة علمية ، وعمل آخرون على نشرها بسوء نيـة ، لأنها وافقت أهواءهم ، فهى تكذب بالأديان التـى وصـفت خلـق الإنسان ، وبذلك يجد الطاعنون فى الدين دليلاً من العلم يرتكـزون عليه ، ويدلسون على الناس به .

تزعم هذه النظرية أن أصل المخلوقات جرثومة هبطت مـن أحد الكواكب ثم تطور إلى يرقة ، ثم إلى دودة ، ثم إلى فراشة ، ثم إلى حيوان صغير ، نشأ فى الماء ، ثم أخذت البيئة تفـرض عليـه من التغييرات فى تكوينه مما أدى إلى نشوء صفات جديدة فى هـذا الكائن ، أخذت هذه الصفات المكتسبة تورث فـى الأبنـاء حتـى تحولت مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة مـن البيئـة عبـر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلـوق البدائى مخلوقًا أرقى ، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعـل البيئـة والارتقاء فى المخلوقات ، حتى وصل إلى هذه المخلوقـات التـى انتهت بالإنسان .

---

(١) اليهود من المهد إلى اللحد للدكتور / عبد العزيز المرشدى – دار الندى القاهرة .

الأساس الذى قامت عليه النظرية :

١ – تعتمد النظرية على أساس ماشوهد فى زمـــن " دارون " من الحفريات الأرضية ، فقد وجدوا أن الطبقات القديمة تحتــوى علـــى كائنات أولية ، وأن الطبقات التى تليها تحتوى على كائنـــات أرقـــى فأرقى . فقال " دارون " : " إن تلك الحيوانات الراقية قـــد جـــاءت نتيجة للنشوء والارتقاء من الحيونات والكائنات الأولى " .

٢ – وتعتمد أيضاً على مَاكان معروفًا فى زمن " دارون " من تشابه جميع أجنة الحيوانات فى أدوارها الأولى ، فهو يوحى بـــأن أصل الكائنات واحد ، كما أن الجنين واحد ، وحدث التطور علـــى الأرض كما يحدث فى أرحام الكائنات الحية .

٣ – كما تعتمد النظرية على وجود الزائدة الدودية فى الإنسان التى هى المساعد فى هضم النباتات ، وليس لها الآن عمـــل فـــى الإنسان مما يوحيَ بأنها أثر بقي من القرود لم يتطور ؛ لأنها تقـــوم بدورها فى حياة القرود .

شرح " دارون " لعملية التطور وكيف تمت :

١ – **الانتخاب الطبيعى :** تقوم عوامل الفناء بإهلاك الكائنـــات الضعيفة الهزيلة ، والإبقاء على الكائنات القوية ، وذلـــك مايـــسمى بزعمهم بقانون " البقاء للأصلح " فيبقى الكائن القوى السليم الـــذى يورث صفاته القوية لذريته ، وتتجمع الصفات القوية مـــع مـــرور

الزمن مكونة صفة جديدة فى الكائن ، وذلك هو " النشوء " الذى يجعل الكائن يرتقى بتلك الصفات الناشئة إلى كائن أعلى ، وهكذا يستمر التطور ، وذلك هو " الارتقاء " .

٢ – **الانتخاب الجنسى :** وذلك بوساطة ميل الذكر والأنثى إلى التزوج بالأقوى والأصلح ن فتورث بهذا صفات الأصلح ، وتنعدم صفات الحيوان الضعيف لعدم الميل إلى التزاوج بينه وبين غيره .

٣ – كلما تكونت صفة جديدة ، ورثت فى النسل .

تفنيد الأساس الذى قامت عليه النظرية :

١ – علم الحفريات لايزال ناقصا ، فلا يدعى أحد أنه قد أكمل التنقيب فى جميع طبقات الأرض وتحت الجبال والبحار ، فلم يجد شيئا جديدًا ينقض المقررات السابقة .

وعلى فرض ثبات مقررات هذا العلم فإن وجود الكائنات الأولى البدائية أولاً ، ثم الأرقى ليس دليلاً على تطور الكائنات الراقية من الكائنات الأدنى ، بل هو دليل على ترتيب وجود هذه الكائنات فقط عند ملاءمة البيئة لوجودها على أى صورة كان هذا الوجود ، وإذا كانت الحفريات فى زمن " دارون " تقول : إن أقدم عمر للإنسان هو ستمائة ألف سنة ، فإن الاكتشافات الجديدة فى

علم الحفريات قد قدرت أن عمر الإنسان يصل إلى عشرة ملايـين من السنين .

أليس هذا أكبر دليل على أن علم الحفريات متغير لايبنى عليه دليل قطعى ، وأنه قد ينكشف فى الغد من الحقائق عكس ماكنا نؤمل ؟

ولقد كتب الدكتور مصطفى شاكر سليم تعليقًا على كتاب الإنسان فى المرآة للمؤلف (كلايد كلوكهون) حول إنسان (ياندرتال) الذى يزعم أنصار نظرية (دارون) أنه أول إنسان تطور من القرود أو الغوريلا . فقال الدكتور مصطفى : ويتصف (إنسان ياندرتال) بالصفات الطبيعية الرئيسة الآتية : مخ أكبر حجما من مخ الإنسان المعاصر ، وجمجمة كبيرة عريضة . إلى أن قال : إلى جانب أن السلسلة التى تغطيها الحفريات مقطعة غير متصلة بما يسمى (الحلقات المفقودة) .

يقول الدكتور (سوريال) فى كتابه " تصدع مذهب دارون " :

١ – إن الحلقات المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليست بالناقصة بين الإنسان ومادونه فحسب ، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوية وبين الحيوانات المفصلية ،

ولا بين الحيوانات اللافقرية وبين الأسماك والحيوانات البرمائيـــة ، ولا بين الأخير وبين الزحافات والطيور ، ولا بين الزواحف وبـــين الحيوانات الآدمية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها فى العــصور الجيولوجية .

٢ - تشابه أجنة الحيوانات : ذلك فخًا كبيرًا وقع فيه بعــض العلماء ، نتيجة لعدم تقدم الآلات المكبرة التى تبين التفاصيل الدقيقة التى تختلف بها أجنة الحيوانات بعضها عن بعــض فـــى التكــوين والتركيب والترتيب ، إلى جانب التزييف الذى قام به واضع صور الأجنة المتشابهة العالم الألمانى (أرنست هيكل) فإنه أعلــن بعــد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى تكملة الشبه فى نحو ثمانيــة فى المئة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول .

٣ - أما وجود الزائدة الدودية فى الإنــسان كعــضو أثــرى للتطور القردي فليس دليلاً قاطعًا على تطور الإنسان من القــرد ، بل يكون سبب وجودها هو وراثتها من الإنسان الجد الــذى كــان اعتماده على النباتات ، فخلقت لمساعدته فى هضم تلك النباتــات ، كما أن العلم قد يكشف أن لها حقيقة لاتزال غائبة عنا حتى اليوم .

فالعلم كل يوم إلى ازدياد ، وإذا كانت الخنوثة مــن صــفات الكائنات الأولية الدنيا ، والزوجية من خصائص الكائنات الراقية ، فإن الثدى من أمارات الأنوثة ، ونجد الفيل الذكر لــه ثــدى كمــا

للإنسان ، فى حين ذكور ذوات الحافر كالحصان والحمار لاثــدى لها إلا مايشبه أمهاتها . فكيف بقى أثر الخنوثة فى الإنسان ، ولــم يبق فيما هو أدنى منه ؟ مع أن (دارون) يزعم أن الإنسان تطور مما هو أدنى منه .

تفنيد شرح دارون لعملية التطور :

١ – يقول " دارون " : إن هناك ناموسًا أو قانونًا يعمل على إفناء الكائنات الحية ، فلا يبقى إلا الأصلح الذى يــورث صــفاته لأبنائه ، فتتراكم الصفات القوية حتى تكون حيوانًا جديــدًا ، حقًــا هناك نظام وناموس وقانون يعمل على إهــلاك الكائنــات الحيــة جميعها قويها وضعيفها ، لأن الله قدر الموت على كل حى ؛ إلا أن نظامًا وناموسًا يعمل بمقابلة هذا النظام ذلك هو قانون التكافل على الحياة بين البيئة والكائن ، لأن الله قــدر الحيــاة فهيــأ أســبابها ، فنجد الشمس والبحار والرياح والأمطار والنباتات والجاذبية كل هذه وغيرها تتعاون للإبقاء على حياة الإنسان وغيره من الحيوانات .

فالنظر إلى عوامل الفناء وغض النظر عن عوامــل البقــاء يحدث خللاً فى التفكير ، فإذا كان هناك سنة للهلاك ، فهناك ســنة للحياة ، ولكل دور فى الحياة ، وإذا كانت الظروف الطبيعية : من رياح ورعد وحرارة وماء وعواصف وغيرها قادرة على تــشويه الخلق أو تدمير صنعه كطمس عين أو تهديم بناء ، فإنه من غيــر

المعقول أن تقدر هذه الظروف الطبيعية الميتة الجامدة والبليـــدة أن تنشئ عينا ، لمن لايملك عينا ، أو تصلح بناء فيه نقص .

إن العقل يقبل أن تكون الظروف الطبيعية صـــالحة لإحـــداث الخراب والهلاك ، لكنه من غير المعقول أن تكون هذه الظـــروف صالحة لتفسير الخلق البديع والتصوير والتكوين المنظم المتقن ، إن أى عضو من أعضاء الكائنات الحية قد رسم بإتقان ، وكون بنظام ورتبت أجزاؤه بحكمة بالغة محيرة ، ونسق عمله مع غيـــره فـــى غاية الإبداع ، ومن المحال أن ينسب ذلك الإتقان والنظام البديع إلى خبط الظروف الطبيعية العشواء .

قال " جمال الدين الأفغانى " فى كتابه " الرد على الدهريين " بعد نقاش لهذه النظرية : وبعد ذلك فإنى سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء ؟ وبايـــة آله أفهم كل جزء منها بقية الأجـــزاء بمـــا ينويـــه مـــن مطلبـــه ؟ وأى (برلمان ، أو سينات) – مجلس الشيوخ – عقدت لإبداع هذه المكونات العالمية التركيب البديعة التأليف ؟ وأنى لهذه الأجزاء أن تعلم – وهى فى بيضة العصفور – ضرورة ظهورها فـــى هيئـــة الطير يأكل الحبوب ، فمن الواجب ان يكون له منقـــار وحوصـــلة لحاجته فى حياته ؟

إن هذا المبدأ الذى أطلقه (دارون) (البقاء للأصـــلح) قـــد دمـــر

الحياة البشرية ، لأنه أعطى المسوغ لكل ظالم فـردًا كـان أو حكومـة ، لأن الظالم وهو يمارس غضبه وظلمه وحربه ومكره لايمـارس رذائـل خلقية ، إنما هو يمارس قانونًا من قوانين الفطرة كما زعـم (دارون) ، إنه يمارس قانون (البقاء للأصلح) ، وذلك الزعم هو الذى أعطى حركة الاستعمار كل بشاعتها .

٢ – أما الانتخاب الطبيعى الذى يكون به الميل فى التناسـل بين الأفراد القوية مما سبب اندثار الأفراد الضعاف ، وبقاء الأقوى فليس ذلك دليلاً على حدوث تطور فى النوع ، بل يفهم منـه بقـاء النوع القوى من النوع نفسه واندثار النوع الضعيف .

أما إذا قيل : إن تطورًا يحدث على كائن ما فإنه يحدث فيه فتـورًا جنسيًا ؛ لأن الألفة بين الـذكور والإنـاث تـنقص بقـدر التباعـد والاختلاف بينهما فى الشكل . ذلك مايقوله (دوير زانسكى) أشهر المختصين بالجيولوجية النوعية عـام ١٩٥٨ م بعـد قـرن مـن (دارون) ، فمن قوله فى هذا : " المخالفة فى الشكل تضعف الميل التناسلى منه ، فالميل إلى التناسل يضعف بين الأشـكال والأنـواع المختلفة بقدر ذلك الاختلاف . وليس صحيحًا أن الصفات المحسنة فى فرد من الأفراد تنقل بوساطة الوراثة .

فمثلاً هذا الحداد القوى العضلات لا تنتقل قوة عضلاته إلـى ذريته ، كما أن العالم الغزير العلم لاينتقل علمـه بالوراثـة إلـى أبنائه " .

٣ - أما القول بحدوث نشوء لبعض الخصائص والصفات العارضة ، ثم توريثها فى النسل ، فذلك مايرفضه علم الوراثة الحديث . فكل صفة لا تكمن فى الناسلة ، ولا تحتويها صبغة من صبغاتها فهى صفة عارضة ، لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة .

يقول الأستاذ (نبيل جورج) أحد ثقات هذا العلم : إن الانتخاب الطبيعى لأجل هذا لايصلح لتعليل مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ؛ لأنه يعلل زوال غير الصالح ونشأة المزايا الموروثة بين الأفراد ، والقائلون بالطفرة يقصدون أن الحيوان الذى لم يكن له عين تتكون له العين فجأة بوساطة بعض الأشعة .

فقد ثبت لدى المختصين أن الأشعة السينية تغير العدد فى الناسلات لكن أثر الأشعة تغيير لما هو موجود ، لا إنشاء ماليس له وجود ، فعدد ناسلات القرد غير عدد ناسلات الإنسان ، والأشعة لاتؤثر إلا فى الناسلات الموجودة فضلاً من أن تحدث هذه الأشعة التى لا عقل لها ولا إدراك عقلاً للإنسان يتميز به عن القرد وغيره من سائر الحيوانات .

إن الأشعة تؤثر فى الناسلات تأثيرًا أقرب إلى التشويه منه إلى الإصلاح كما يحدث من الأشعة الذرية . وإلى جانب مخالفة علم الوراثة (لنظرية دارون) فإن التجربة تنقضه ، فها هم اليهود والمسلمون من بعدهم يختتون أبناءهم ، ولكن ذلك كله لم يسبب أن

ولد أطفالهم بعد مرور السنين مختونين ، وهكذا فكلما تقدم العلم أثبت بطلان نظرية (دارون) . [1]

النظرية لايؤيدها الواقع المشاهد :

١ – لو كانت النظرية حقًا لشاهدنا كثيرًا من الحيوانات والإنسان تأتى إلى الوجود عن طريق التطور ، لا عن طريق التناسل فقط . وإذا كان التطور يحتاج إلى زمن طويل فذلك لايمنع من مشاهدة قرود تتحول إلى آدميين فى صورة دفعات متوالية .

٢ – لو سلمنا أن الظروف الطبيعية والانتخاب الطبيعى ؛ قد طورت قردًا إلى رجل – مثلاً – فإنا نسلم أبدًا بأن هذه الظروف قد قررت أيضا أن تكون امرأة لذلك الرجل ، ليستمرا فى التناسل والبقاء مع الموازنة بينهما .

٣ – إن القدرة على التكيف التى نشاهدها فى المخلوقات كالحرباء التى تتلون بحسب المكان ، هى مقدرة كائنة فى تكون المخلوقات ، تولد معها ، وهى عند بعضها وافرة ، وعند بعضها الآخر تكاد تكون معدومة وهى عند جميع المخلوقات محدودة لاتتجاوز حدودها ، فالقدرة على التكيف صفة كامنة ، لاصفة متطورة تكونها البيئة كما يزعم أصحاب النظرية ، وإلا كانت البيئة فرضت التكيف على الأحجار والأتربة وغيرها من الجمادات .

---

(١) انظر : كتاب العقيدة الإسلامية للدكتور / عمر الأشقر ص ٨٩ .

٤ – تمتاز الضفادع على الإنسان بمقدرة على الحياة فى البر والماء ، كما تمتاز الطيور عليه بمقدرة الطيران والانتقال السريع وذلك بدون آلة ، كما أن أنف الكلب أشد حساسية من أنف الإنسان ، فهل أنف الكلب أكثر رقيًا من أنف الإنسان ؟

وهل الضفادع والطيور أرقى من الإنسان فى بعض الجوانب ؟

كما أن عين الجمل أو الحصان أو الحمار ترى فى النهار وفى المساء على السواء ، فى حين تعجز عين الإنسان عن الرؤية فى الظلام كما أن عين الصقر أشد حدة من عين الإنسان . فهل الصقر أو الحمار أرقى من الإنسان ؟ وإذا أخذنا الاكتفاء الذاتى أساسًا للرقى كما هو بالنسبة لحال الدول فإن النبات يفوق الإنسان وجميع الحيوانات ، لأنه يصنع طعامه وطعام غيره دون أن يحتاج لغذاء من غيره .

وإذا أخذنا الضخامة أساسًا للرقى ، عندئذ يجب أن يكون الجمل والفيل وحيوانات ماقبل التاريخ الضخمة أرقى من الإنسان .

موقف علماء الطبيعة من النظرية :

١ – المؤيدون للنظرية وتأييدهم كان أكثره انتصارًا لحرية الفكر الذى كانت الكنيسة تحاربه وتقاومه ، فقد شن علماء الطبيعة حربًا ضد قسس الكنيسة وأفكارهم بعد أن نشبت حرب طاحنة بين الفريقين .

٢ – المعارضون ، وهم المطالبون بدليل محسوس على فعل (الانتخاب الطبيعى) فى تحويل الأنواع ، ولاسيما نوع الإنسان ، فالمعترضون عليه طلبا للأدلة الطبيعية لايقلون عددًا أو اعتراضًا عن المعترضين اللاهوتيين فى أوربا .

وهذه بعض آراء العلماء المعارضين كما نقلها الأستاذ إبراهيم حورانى : " إن العلماء لم يثبتوا مذهب " دارون " بل نفوه ، وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين سنة " ، ومنهم العلامة " نشل " ، والعلامة " دلاس " قال ماخلاصته : " إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لايصدق على الإنسان ، ولابد من القول بخلقه رأسًا " .

ومنهم " فرخو " قال : " إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقًا بعيدًا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك " .

ومنهم " ميفرت " قال بعد أن نظر فى حقائق كثيرة من الأحياء :" إن مذهب " دارون " لايمكن تأييده ، وإنه من آراء الصبيان " .

ومنهم العلامة " فون بسكون " قال بعد أن درس هو و " فرخو " تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد : " إن الفرق بين الاثنين أصلى وبعيد جدًا . . " .

ومنهم العلامة " أغاسيز " قال فى رسالة فى أصـــل الإنـــسان تليت فى ندوة العلم الفيكتورية ، ماخلاصته : إن مذهب (دارون) خطأ على باطل فى الواقع ، وأسلوبه ليس من العلـــم فـــى شـــئ ، ولا طائل تحته .

ومنهم العلامة " هكسلي " وهو مـــن (اللاأدريـــة) وصـــديق (لدارون) قال : إنه بموجب مَالنا من البينات لم يثبت قط أن نوعًـــا من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعى أو الانتخاب الصناعى .

ومنهم العلامة " تندل " وهو مثل " هيكل " قال : " إنه لاريب فى أن الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يعلـــم بها ، ومن المحقق عندى أنه لابد من تغيير مذهب (دارون) " .

نظرية لا حقيقة :

لذلك كله فقد أطلق على ماقالـــه (دارون) بـــشأن التطـــور (نظرية التطور) ، وهناك فرق كبير لدى العلماء بين النظريـــة والحقيقة أو القانون . فالنظرية فـــى اصـــطلاحهم هـــى ماتحتمـــل التصديق والتكذيب ، أما الحقيقة أو القانون فلا يحتمل وجهـــا مـــن أوجه الباطل .

سبب انتشار هذه النظرية :

١ – **الطغيان الكنسى** : سبب انتشار هذه النظرية هو مجيؤها فى وقت أذن الله فيه أن يظهر باطل ذلك الـــدين المحـــرف المغيـــر

(النصرانية) على أيدى جماعة من أبنائه ، فكان لتقدم العلوم أثـــر كبير فى كشف زيف ذلك الدين ، مما أدى إلـــى نــشوب معركـــة ضارية ذهب ضحيتها آلاف من علماء الطبيعة ، وفـــى المعتـــرك الحامى أخذ كل فريق فى استخدام كـــل ســـلاح ضـــد خـــصمه ، فانتشرت هذه النظرية سلاحًا أشهره علماء الطبيعة فى وجه دينهم ، ثم فى وجه كل دين وطئت أقدامهم المستعمرة أرضه ؛ لاعتقـــادهم بصدق هذه النظرية ، وانتقامًا من ذلك الدين الباطل الـــذى وقـــف حجر عثرة أمام البحث فى ميادين العلوم الطبيعيـــة ، ثـــم وســـيلة لتحطيم أديان الأمم المستعمرة حتـــى يـــسهل علـــى المـــستعمرين السيطرة على هذه الشعوب .

٢ - **الاحتلال الغربى :** وهكذا فرض التعليم الاستعمارى هذه النظرية بعد أن حطم دينها فى مناهج الدراسة ، وقدمها فى ثـــوب (علمى) حتى يستطيع أن يقنع الطلاب بصدق هذه النظرية ليقرر ماألقى فى أذهان الطلاب من خلاف بين العلم الذى زيفوه والدين ، فيكفر الناس بدينهم .

ويكفى أن يعرف القارئ أنه بوساطة هذه النظرية انحرف كثير من أبناء الإسلام عن دينهم ، ولذلك فقد حرص الاستعمار على تعليم هذه النظرية لأبناء المسلمين فى مدارسنا فى الوقت الذى يحرم فيـــه القانون الأمريكى تعليم هذه النظرية فى المدارس منذ سنة ١٩٣٥ م .

ولايخفى أيضا الدور اليهودى فى زيوع وانتشار هذه النظرية وذلك لأن انهيار الدين يخدم مخططاتهم الخبيثة . وهذا مـــا أعلنـــه الصهيونية فى بروتوكولات حكماء صهيون .

ولكن أوربا بعد أن قضت على دينها المحرف عادت لتعلن أن نظرية (دارون) التى استخدمتها فى المعركة لدعم موقفها ليـــست حقيقة علمية ، وإنما هى نظرية كلما تقدمت العلـــوم كـــشفت عـــن باطلها .



القرآن ونظرية دارون

حين يتكلم القرآن فى الحقائق الأزلية فعلى الناس أن يصغوا وينصتوا ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ الأعراف : ٢٠٤ . لأنه من العليم الخبير الذى أحاط بكل شئ علمًا ، وما علم الإنسان ! إنه لاشئ بجانب علم الله ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة : ٢١٦ .

وكيف لايعلم أمر خلقه وهو الذى خلقهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الملك : ١٤ .

وكيف يسمح الناس لأنفسهم أن يتحدثوا عن أصلهم البعيد وهم لم يشهدوا ذلك الخلق ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ الكهف : ٥١ .

وماداموا لم يشهدوا ، فإن صوابهم فى هذا المجال قليل ، وخطؤهم كثير .

عكس هذه النظرية هو الصواب :

- الذى يقرره العليم الخبير خالق الإنسان مخالف تمامًا لما قرره هؤلاء الجاهلون ، فالله يخبرنا أنه خلق الإنسان خلقًا مستقلاً مكتملاً ، وقد أخبر ملائكته بشأن خلقه قبل أن يوجده ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة : ٣٠ .

وحدثنا عن المادة التى خلقه منها ، فقد خلقه من تراب ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الحج : ٥ .

وفى الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبيث والطيب) [١] .

والماء عنصر فى خلق الإنسان ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ النور : ٤٥ ، فهو من ماء وتراب : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ الأنعام : ٢ . هذا الطين تحول إلى صلصال كالفخار ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ الرحمن : ١٤ .

وقد خلقه الله بيديه ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ ص : ٧٥ .

وقد خلقه مجوفًا منذ البداية ، ففى الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : (لما صور الله آدم فى الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ، فلما رآه أجوف عرف أنه

---

(١) رواه أحمد والترمذى وأبو داود (مشكاة المصابيح ١ / ٣٦ ورقمه ١٠٠) .

خلق خلقًا لا يتمالك).[1] .

هذا الطين نفخ الله فيه من روحه ، فدبت فيه الحياة ، فأصبح سميعًا بصيرًا متكلمًا عاقلاً واعيًا ، فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حين ينفخ فيه الروح ، وتدب فيه الحياة ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ص : ٧٢ .

وأخبرنا الله بالمكان الذى أسكنه فيه بعد خلقه ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ البقرة : ٣٥ .

وبمجرد أن تم خلقه أخذ يتكلم ويفقه مايقال له ، ففى القرآن ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ البقرة : ٣١ – ٣٣ .

وفى حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله ، فحمد الله بإذنه ، فقال له ربه : يرحمك الله يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة – على ملأ منهم جلوس – فقل : السلام عليكم . قالوا : عليك

---

(١) صحيح مسلم : ٤ / ٢٠١٦ ورقمه ٢٦١١ .

السلام ورحمة الله . .) [١] .

هذا الإنسان الأول هو آدم وهو أبو الناس كافة ، وخلق الله من آدم زوجه حواء ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ النساء : ١ .

ولم يكن خلق الإنسان ناقصًا ثم اكتمل ، كما يقول أصحاب نظرية التطور ؛ بل كان كاملاً ، ثم أخذ يتناقص الخلق ، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : (خلق الله آدم وطوله : ستون ذراعًا) . [٢]

ولذلك فالمؤمنون يدخلون الجنة مكتملين على صورة آدم ، ففي بقية الحديث السابق : (فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعا) ، ثم يقول ﷺ : (فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن) .

وقد أخبرنا الحق أنه مسخ بعض الضالين من البشر قردة وخنازير فالمستوى الراقي من الخلق يمكن أن ينحدر إلى المستوى

---

(١) رواه الترمذي : مشكاة المصابيح ٢ / ٥٤٢ ورقمه ٤٦٦٢ . وقال محقق المشكاة : صححه الحاكم ووافقه الذهبي . وهو كما قالا .

(٢) صحيح البخاري ٦ / ٣٦٢ ، ورقمه ٣٣٢٦ ، ورواه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١٨٣ ورقمه ٢٨٤١ ، واللفظ للبخاري .

الأدنى ، أما أن تحول القرود والخنازير بشرًا فهذا لايوجد إلا عند اصحاب العقول الضعيفة .

هذه لمحة مما حكاه القرآن وأخبرت به الأحاديث عن خلق الإنسان الأول ، لم نستقص النصوص من الكتاب والسنة فى ذلك ، وإلا فالقول فى ذلك واسع وطويل ، وهو يعطى صورة واضحة لأصل الإنسان ليس فيها غبش ولا خيال ، وهذا الذى يبينه الإسلام أصل كريم يعتز الإنسان بالانتساب إليه ، أما ذلك الإنسان الذى يصوره أصحاب نظرية التطور ، ذلك القرد الذى ترقى عن فأر أو صرصور فإنه أصل يخجل الإنسان من الانتساب إليه .

وذلك الإنسان الذى يدرسه علماء التاريخ للأطفال : الإنسان المتوحش الذى لايفقه الكلام ، ولا يحسن صنع شئ ، الذى يتعلم من الحيوان . . . فيه الكثير من التجنى على أصل الإنسان الكريم . .



دلائل القدرة الإلهية فى الكون

١ – آيات كونية فى آيات قرآنية :

يأخذنا القرآن فى جولات وجولات نرتــاد آفــاق الــسماء ، ونجول فى جنبات الأرض ، ويقف بنا عنــد زهــرات الحقــول ، ويصعد بنا إلى النجوم فى مداراتها ، وهو فــى كــل ذلــك يفــتح أبصارنا وبصائرنا ، فيرينا كيف تعمــل قــدرة الله وتقــديره فــى المخلوقات ، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكــوين ، ويهــدينا إلــى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء ، ويبين عظيم النعم التى حبانا بها فى ذوات أنفسنا وفى الكون من حولنا .

إنه حديث طويل فى كتاب الله يطالعك فــى طــوال ســوره وقصارها ، وهو حديث مشوق تنصت إليه النفس ، ويلذه الــسمع ، ويستثير المشاعر والأحاسيس .

فعل الله فى الكون :

تعال معى لنقوم بجولة مع الآيات القرآنية ؛ نرتاد هذا الكون ليرينا كيفَ تعمل قدرة الله فى مختلف أرجاء الكون : فى الحبة تلقى فى التربة فتنفلق ، وتضرب بجذورها فى التربة ، فيخرج من الحبة الجامدة حياة تتمثل فى سوق ، وأوراق ، وأزهار تفوح بالشذى ، وثمار يتغذى بها الإنسان والحيوان . وفى الإصباح وهو ينبلج . . وفى سكون الليل . . ومسير الشمس والقمر . .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ . الأنعام : ٩٥ – ٩٦ .

وانظر إلى مشهد السحاب كيف يصنعه الله ، والبرد كيف يكونه ويصرفه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ النور : ٤٣

ويحدثنا الله عن فعله فى الظل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الفرقان : ٤٥ – ٤٦ .

وانظر إلى تصريفه شؤون الحياة والأحياء والليل والنهار : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ آل عمران : ٢٦ – ٢٧ .

لايكتفى القرآن بأن يرينا قدرة الله وهى تعمل فـــى الكـــون ، وعلمه يحيط بالمخلوقات ، وتصريفه للشؤون المختلفة . . . ولكنه – مع ذلكُ – يعرفنا بالغاية التى خلق الكون من أجلها .

خلق الله هذه الأرض من أجل الإنسان ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ البقرة : ٢٩ . خلقها لنا على نحو يتوافق مع طبيعتنا وتكويننا ويحقق لنا الصلاح ، وهذا ماسماه القرآن بالتسخير وفى الحديث القدسى يقول رب العزه سبحانه : (عبدى خلقت الأشياء لك ، وخلقتك لى فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له) .

وهو لا يخبرنا بذلك مجرد إخبار ، وإنما يوقفنا على هذا التسخير الذى جعله الله فى الكون ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لقمان : ٢٠ . فالنجوم خلقت لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الأنعام : ٩٧

والأرض والسماء ، وإنزال الماء من السماء ، والسفن السابحة فى البحر ، والأنهار الجارية فى جنبات الأرض ، والشمس والقمر ، وتعاقب الليل والنهار . . . كل ذلك مخلوق لنا ولخيرنا ولصلاحنا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ

بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ إبراهيم ٣٢ – ٣٤

٢ – نعم الحق على الخلق :

عرفنا القرآن بأن الله خلق هذا الكون وسخره لنا ، فجعله متوافقًا مع جبلتنا ، وقدره تقديرًا تصلح به حياة الإنسان ، والقرآن يتخذ من هذا الحديث والبيان سبيلاً ليشكر الإنسان ربه ، إذ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ الرحمن : ٦٠ .

ولذلك أفاض القرآن فى ذكر النعم التى حباها الله عباده فى ذوات أنفسهم ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الملك : ٢٣ . ، وفى الكون من حولهم : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الزخرف : ١٠

وخلق لنا الشمس والقمر على نحو يحقق النفع والصلاح ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ يونس : ٥ .

والأنعام من الجمال والأبقار والأغنام ، وكذلك الخيل والبغال والحمير خلقها لنا على نحو يفيدنا ويتناسب مع طبائعنا وتكويننا ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ النحل : ٥ – ٨ .

والبحر مخلوق لنا أيضا ، وفى خلقه على ماهو عليه مايحقق لنا الشئ الكثير ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ النحل : ١٤ .

والنحل خلقه الله ليقوم بذلك العمل الرائع ، لينتج لنا ذلك الشراب المختلف الألوان ، ليتغذى به البشر ، ويكون لهم شفاء ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ النحل : ٦٨ – ٦٩ .

التعرف على الله من خلال آياته الكونية سبيل حث عليه القرآن :

حث القرآن عباد الله على النظر فـي آيـات الله الكونيـة : الأرض ، والسماء ، ومافيهما وما بينهما ، وجعل النظر والتأمل في ذلك من الذكرى التي تنفع المؤمنين .

وقد أعجبني تسمية بعض المعاصرين لهذا المنهج (بقـانون السير والنظر) لكثرة حث الآيات القرآنية على ذلك ، وقد يكـون السير والنظر حسيان ، فيسير المرء بقدميه ، وينتقل من بلد لآخر ، كما قد يكون النظر بالبصر ، وقد يكونان بالفكر والعقل .

وقد جاء الأمر في القرآن أمرًا عامًا ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ العنكبوت : ٢٠ . وقال : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يونس : ١٠١ . وقد يأتي أمرًا خاصًا ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ الطارق : ٥ ، ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ عبس : ٢٤ .

٣ – الحق هو المستحق للعبادة وحده :

الهداية التي يجلبها النظر والتفكر فـي الآيـات الكونيـة توجـه إلى عبادة الله وحده ، فالله وحده هو الخالق المـدبر المقـيم للـسموات والأرض الرازق المحيي المميت . . . ؛ لذلك فهو المـستحق للعبـادة دون سواه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ البقرة : ٢١ – ٢٢ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ ﴾ فاطر : ٣ .

وبهذا الطريق – كما سبق – أثبت القرآن بطلان الآلهة المدعاة وعدم استحقاقها شيئا من العبادة ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ لقمان : ١٠ – ١١ .

ولذلك فإنه يذكر خلقه بالآيات الكونية وتصريفه الأمور وتدبيره الشؤون ثم يعقب على ذلك فى كثير من آى القرآن بقوله : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الزمر : ٦ . أى ذلكم الإله الذى يستحق العبادة دون سواه .

استمع إلى هذه الآيات وتأمل التعقيب عليها : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ

وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ الزمر : ٥ – ٦ .

٤ – العلماء يبينون عجائب صنع الله فى خلقه :

وكان العلماء ولا يزالون يبينون عجائب صنع الله فى خلقه ، ويعظون أنفسهم بذلك ، كما يعظون غيرهم ، وسننقل طرفا مما توصل إليه العلماء فى هذا المجال فى القديم والحديث .

وأحب أن يضع القارئ نصب عينيه وهو يقرأ هذه المقتطفات قول موسى لفرعون ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ طه : ٥٠ فالله أعطى كل شئ خلقه الذى يناسبه ، وهداه لما فيه صلاحه . . وسنرى أمثلة من هذا الإعطاء وتلك الهداية .

❑ **المثال الأول : تكون الأجسام من الخلايا وانقسامها :**

أ – مم تتكون أجسام الأحياء وكيف ؟

يقول باحث معاصر هو الدكتور يوسف عز الدين مجليا هذا الموضوع : " معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التى نسميها (الخلايا) ، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة " .

ب – لماذا تنقسم الخلايا دائما ؟

ويتابع الدكتور يوسف عز الدين كلامه مبيناً السر فى انقسام الخلايا فيقول : " وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام ، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم ، أو لتعويض مايفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة . وكل خلية من هذه الخلايا تتكون أساسًا من مادة عجيبة نطلق عليها اسم " البروتوبلازم " .

وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة ، ومن هذه المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هى التى نطلق عليها اسم " الكروموسومات " .

وعدد هذه " الكروموسومات " ثابت فى خلايا كل نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة ، فعددها فى خلايا القط – مثلاً – يختلف عن عددها فى خلايا الكلب أو الفيل أو نبات الجزر أو الفول .

وفى كل خلية من الخلايا التى يتكون منها جسم الإنسان يوجد ستة وأربعون من هذه (الكروموسومات) .

وعندما تنقسم الخلية غلى خليتين داخل أجسامنا فإن كل خلية جديدة لا بد أن تحتوى على العدد نفسه من (الكروموسومات) ، وهى ستة وأربعون ، إذ لو أختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنساناً

والخلايا كما ذكرت دائمة الانقسام ، يحدث هذا فى جميع ساعات اليوم حتى فى أثناء نومنا ، ونحن حتى الآن لاندرك حقيقة القوى المهيمنة على هذه العلمية المذهلة : عملية انقسام الخلايا ، بل يكتفى العلم بوصف الخطوات العلمية التى يمكن ملاحظتها تحت عدسات (الميكرسكوب) العادى أو عن طريق (الميكروسكوب الألكترونى) الذى يكبر الأشياء تكبيرًا أكثر بكثير من تكبير الميكروسكوب العادى " .

ج – لماذا تختلف الخلايا التناسلية عن غيرها ؟

وذكر الدكتور يوسف : " أن جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام فى جسم الإنسان لابد أن تحتوى على ستة وأربعين (كروموسومًا) فيما عدا نوعين من الخلايا ، هما الخلايا التناسلية ، أى الحيوان المنوى فى الذكر والبويضة فى الأنثى ، وعندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لاتحتوى على الستة والأربعين (كروموسومًا) ، بل تحتوى على نصف هذا العدد ، أى يصبح فى كل خلية تناسلية ذكرية أو أنثوية ثلاثة وعشرون (كروموسومًا) فقط " .

ثم بين لماذا يحدث ذلك ، فقال : " يحدث هذا لحكمة بالغة ولهدف عظيم ، إذ أن الخلية الذكرية (الحيوان المنوى) لابد أن تندمج مع الخلية الأنثوية (البويضة) لتكوين أول خلية فى جسم

الجنين ، وهى التى نطلق اسم (الخلية الملقحة) ، حيث ينضم الثلاثة والعشرون (كروموسومًا) التى فى الخلية الذكرية إلى الثلاثة والعشرين (كروموسومًا) التى فى الخلية الأنثوية لكى يعود عدد (الكروموسومات) فى الخلية الجديدة إلى العدد الأصلى ، وهو ستة وأربعون (كروموسومًا)

وهذه الخلية الملقحة التى أصبحت تحتوى على ستة وأربعين (كروموسومًا) توالى انقسامها ، فتصبح خليتين ، ثم أربع خلايا ، ثم ثمانى خلايا وهكذا ، حتى يتم تكوين الجنين الذى يخرج من رحم أمه ، ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنسانًا كامل النمو فى كل خلية من خلاياه ستة وأربعون (كروموسوما) كما هو الحال فى خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده وجميع أفراد الجنس البشرى " .

" إن اختزال عدد (الكروموسومات) إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكى تندمج فيعود العدد الأصلى (للكروموسومات) فى الخلايا لايمكن مطلقًا أن يكون نتيجة مصادفة عمياء ، بل لابد أن يكون نتيجة تقدير دقيق من قوة عليا تعلم ماذا تفعل .

وهى فى الوقت نفسه لايمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ ، إذ لو حدث خطأ مرة واحدة عند بدء الخلق لقضى على

الكائن الحى قبل تكوين الجيل الثانى . أى إن هذا الترتيب لابــد أن يكون قد تم منذ تكوين أول جنين ظهر فى الوجود ، أى يكفى هــذا وحده دليلاً على وجود قوة عليا مدبرة مقدرة حكيمة ؟ "

د – لماذا لا تنقسم خلايا المخ ؟

أما النوع الآخر من الخلايا التى تخالف بقية خلايا الجسم فهى خلايا الدماغ ، وهى تخالف بقية الخلايا فى كونها لاتنقسم ، وعــن السر فى عدم انقسامها يقول الدكتور يوسف عز الدين :

" لا يمكن أن يكون عن طريق التجربــة واحتمــال الخطــأ والصواب أن الخلايا الوحيدة التى لا تنقسم هى الخلايــا العــصبية التى يتكون منها المخ وباقى الجهاز العصبى ، لو انقــسمت كمــا يحدث لباقى الخلايا لحدثت كارثة مروعة ، إن خلايا المخ فى هذه الحالة لن يمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان ، وسوف تتلاشى جميع معالم الذاكرة فى خلال ساعات قلائل .

إن عدد خلايا المخ عند ولادة الإنسان أو أى حيــوان آخــر لاتزيد عليها خلية واحدة حتى وفاته ، بينما نجد أن الكرات الدموية الحمراء التى تسبح فى الدم ، ماهى إلا خلايا تموت ، ويحل محلها خلايا جديدة كل نحو مائة يوم . وتتكون الخلايا الحمراء (الكرات الحمراء) فى نخاع العظام ، ثم تنطلق لكى تسبح فى تيار الــدم ، لتحل محل الخلايا التى استهلكت " .

هـ - السر فى تفاوت قوة عضلات الجسم :

ويتحدث الدكتور عن هذا الموضوع فيقول : " أقوى عضلات فى جسم الإنسان أو الحيوانات الثديية هى عضلات الرحم عند الأنثى ، تلك التى تدفع الجنين ليخرج من بطن أمه ، إذ لو لم تكن هذه العضلات بهذه القوة منذ بدء خلق الإنسالن أو غيره من الحيوانات،لما خرج إلى الوجود أول جنين من بطن أمه .

وتلى عضلات الرحم فى القوة عضلات القلب والفكين ، فعضلات القلب لابد أن تكون قوية لتصمد للعمل ليلاً ونهارًا لدفع الدم إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول لأكثر من مائة عام ، وكذلك الحال فى عضلات الفكين التى ينبغى أن تظل قادرة على دفع الأسنان لينطبق بعضها على بعض لكى تمضغ أطنانًا من الطعام طوال حياة الإنسان " .

❑ المثال الثانى : مقاومة الأحياء لعوامل الفناء :

ويقرر الدكتور يوسف : " وجود صفة مهمة تشترك فيها جميع الكائنات الحيّة من أدناها إلى أرقاها ، هذه الصفة هى مقاومة عوامل الفناء ، إذ إنّ خالق جميع هذه الكائنات يريد لها البقاء .

إنّ (فيروس الأنفلونزا) يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة ؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه ، والحشرات مع توالى الأجيال تكتسب مناعة ضدّ المبيدات الكيميائية ؛ لكى تقاوم عوامل الفناء

وانقراض الجنس .

بل فى الإنسان نفسه لوحظ كثـرة الإنجـاب فـى فتـرات الحروب ، كما لوحظ أنّ أية سيدة تواظب على تناول حبوب منـع الحمل مدة طويلة ثم تسهو عن تناولها بعض الأيام – فإنّ النتيجـة فى معظم الأحيان تكون إنجاب عدة توائم ؛ لتعويض الـنقص فـى الذرية الذى حدث فى أثناء فترة الامتناع عن الحمل .

وإذا استأصل الإنسان إحدى الكليتين لسبب من الأسباب فإنّ الكلية الباقية يزداد حجمها وتؤدى عمل الكليتين ، وكأن فى الجـسم عقلاً يدرك به ما حدث من نقص فيسرع لتعويضه .

الله وحده هو الذى زود هذه المخلوقات بهذه القدرة العجيبـة على التوازن حتى لا تنقرض وتتعرض للفناء ، كما زود العديد من الحيوانات بوسائل للدفاع عن أنفسها لا يختلف فى ذلك الإنسان عن العقرب أو الثعبان أو أم أربعة وأربعين أو غيرها .

لا يمكن أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذى يـسود جميـع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط فى الظـلام ، إذ إنّ المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخـضع لـه جميـع الكائنات " .

❑ المثال الثالث : هداية النحل وشئ من عجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم [1] رحمه الله تعالى عن بدائع صنع الله فى خلقه مبيناً هداية الله للنحل فى أمور معاشه : " وأمر النحل فى هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميرًا ومدبرًا ، وهو اليعسوب ، وهو أكبر جسمًا من جميع النحل ، وأحسن لونًا وشكلاً .

وإناث الحل تلد فى إقبال الربيع [2] ، وأكثر أولادها يكن إناثاً ، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها ، بل إما أن تطرده ، وإما أن تقتله ، إلا طائفة يسيرة منها ، وذلك أن الذكور منها لاتعمل شيئا ولا تكسب .

وأول مايبنى فى الخلية مقعد الملك وبيته ، فيبنى له بيت مربع يشبه السرير والتخت ، فيجلس عليه ، ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص ، لا يفارقنه ، ويجعل النحل بين يديه شيئا يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى مايقدر عليه ، ويملأ منه الحوض ويكون ذلك طعامًا للملك وخواصه .

---

(١) شفاء العليل : ١٠١ ، وما نقلناه عن ابن القيم يدلنا على أن السلف الصالح كانوا يعنون بالتأمل فى خلق الله ، ويدلنا على أن ملاحظة العلماء المسلمين بلغت مبلغاً كبيراً ، إلا أنها لم تخل من أخطاء ، فالنحل ليس له ملك بل ملكة .

(٢) الذى يبيض من النحل ملكة النحل فحسب .

ثم يأخذن فى ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سـكك ومحال وتبنى بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع ، كأنها قرأت كتاب إقليدس حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها ؛ لأن المطلوب من بنـاء الدور هو الوثاقة والسعة ، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مـستديرًا كاسـتدارة الرحى ، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل ، ويشد بعضه بعضا ، حتى يصير طبقًا واحدًا محكمًا ، لايدخل بين بيوته رؤوس الإبر .

فتبارك الذى ألهمها أن تبنى بيوتها هذا البناء المحكـم الـذى يعجز البشر عن صنع مثله ، فعلمت أنها محتاجـة إلـى أن تبنـى بيوتها من أشكال موصـوفة بـصفتين : أحـداهما : أن لا تكـون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً . والثانية : أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلـى بعـض ، وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعًا ، ثم إنهـا علمـت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط ؛ فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضـيقة ، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسـعة إلا أنهـا لاتمتلـئ العرصة منها ، بل يبقى فيما بينها فروج خاليـة ضـائعة ، وأمـا المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين ، فهداها – سبحانه – إلـى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلـة ، ولا مثـال

يحتذى عليه ، وأصنع بنى آدم لايقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة .

فتبارك الذى هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتاتيها ذللاً لا تستعصى عليها ، ولا تضل عنها ، وأن تجتنى أطيب مافى المراعى وألطفه ، وأن تعود إلى بيوتها الخالية ، فتصب فيها شرابًا مختلفًا ألوانه ، فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لايات لقوم يتفكرون .

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصًا تسيح سهلاً وجبلاً فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجع بطانًا .

وجعل – سبحانه – فى أفواهها حرارة منضجة تنضج ماجنته فتعيده حلاوة ونضجًا ، ثم تمجه فى البيوت ، حتى إذا امتلأت ختمتها ، وسدت رؤوسها بالشمع المصفى ، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته ، فاتخذت فيه بيوتًا ، وفعلت كما فعلت فى البيوت الأولى ، فإذا برد الهواء ، وأخلف المرعى ، وحيل بينها وبين الكسب ، لزمت بيوتها ، واعتذت بما ادخرته من العسل ، وهى فى أيام الكسب والسعى تخرج بكرة وتسيح فى المراتع ، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل ، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها .

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرًا إذا اشتهى

التنزه ، فيخرج ، ومعه أمراء النحل والخدم ، فيطوف فى المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ، ثم يعود إلى مكانه .

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه ، فيغضب ويخرج من الخلية ، ويتباعد عنها ، ويتبعه جميع النحل ، وتبقى الخلية خالية .

فإذا رأى صاحبها ذلك ، وخاف أن يأخذ النحل ، ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه ، فيتعرف موضعه الذى صار إليه بالنحل ، فيعرفه باجتماع النحل إليه ، فإنها لا تفارقه وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودًا ، وهو إذا خرج غضبًا جلس على مكان مرتفع من الشجرة ، وطافت به النحل ، وانضمت إليه ، حتى تصير كالكرة ، فيأخذ صاحب النحل رمحًا أو قصبة طويلة ، ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف ، ويدنيه إلى محل الملك ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شئ من آلات الطرب فيحركه ، وقد أدنى إليه ذلك الحشيش ، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك ، فإذا رضى وزال غضبه طفر ووقع على الضغث ، وتبعه خدمه وسائر النحل فيحمله صاحبه إلى الخلية ، فينزل ويدخلها هو وجنوده ، ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام .

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة ،

ولا تدين لطاعتها والنحل الصغار المجتمعة الخلق هى العسالة ، وهى تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا ، وإذا فعلت ذلك جاد العسل ، وتجتهد أن تقتل ماتريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته .

ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم ، وبينها وبين العسالة حرب ، فهى تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها ، وتقصد هلاكها والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها ، فإذا هجمت عليها فى بيوتها حاولتها وألجأتها على أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل ، فلا تقدر على الطيران ، ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر ، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى فحملتها وألقتها خارج الخلية .

وفى النحل كرام عمال لها سعى وهمة واجتهاد ، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة ، فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عن الخلية ، ولا تساكنها خشية أن تعدى كرامها وتفسدها .

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه ، ولذلك لا تلقى زبلها إلا حين تطير ، وتكره النتن والروائح الخبيثة ، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادًا من الكبار ، وأقل لسعًا وأجود عسلاً ، ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار .

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه فقد خصت من وحى الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها ، وكان الخارج

من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذى يضئ فى الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان له أعداء ، وكان أعداؤه من أقل الحيوان منفعة وبركة ، هذه سنة الله فى خلقه وهو العزيز الحكيم . (١)

كيف يدل النحل بعضه بعضًا على مكان الغذاء ؟

مما لاحظه العلماء المعاصرون الطريقة التى يدل بها النحل بعضه بعضا على مكان الغذاء ، يقول الدكتور يوسف عز الدين : " لو اكتشف أحد عمال النحل حقلاً أو كمية من النباتات تعتبر مصدرًا للغذاء ، فإنه يعود للمستعمرة ليخبر باقى العمال عن هذا الكنز الذى اكتشفه ، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدرى لماذا تفعل هذا .

إنها ترقص رقصات غريبة ذات مدلولات معينة ، إذ إن جسمها يصنع فى أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس ، وإذا كان الحقل الذى اكتشفه قريبًا من المستعمرة فإن الرقصة فى هذه الحالة تختلف عنها فى حالة بعد الحقل مسافة أطول .

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أن حقلاً من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التى يحضر النحل غذاءه منها ، يقع على بعد معين والطريق إليه يقتضى السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس .

---

(١) شفاء العليل : ص ١٠١ .

فيؤدى بعض العمال الرقصة نفسها ، عند ذلك تطمئن النحلة التى اكتشفت الحقل إلى أن باقى النحل قد فهم ماتريد أن تقوله ، فيطير باقى الأفراد ويصلون مباشرة إلى ذلك الحقل لإحضار مزيد من الغذاء .

إن النحلة المكتشفة قد نقلت إلى النحل الذى فى المستعمرة عددًا من المعلومات برقصتها ، ولو حاولنا نحن البشر أن نتوصل إلى ماتوصل إليه النحل من فهم لهذه الطلاسم عن طريق رسم بيانى لاستغرق وقتًا لايقل عن ثلث ساعة إن كان لدينا إلمام كاف بالعلوم الرياضية ، ولكن النحل يفهم كل ذلك فى الحال ، ويطير نحو الحقل فى خط مستقيم ليحضر مايلزمه من غذاء .

شئ مذهل لايمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون فى هذه الكائنات الصغيرة التى لاتملك قدرًا من العقل أو قدرة على التفكير تمكنها من القيام بما يلزمها " .

رؤية النحل مالا نراه من الألوان :

ويذكر لنا الدكتور يوسف أن من عجائب النحل رؤيته " لونًا لانراه نحن البشر ، ولا يمكن أن نتصوره ، وهو اللون فوق البنفسجى الذى نراه نحن أسود ، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية " ثم يبين لنا الحكمة من وراء رؤية النحل لذلك اللون فيقول " والحكمة فى ذلك هى أن تلك الأشعة هى الوحيدة القادرة على

اختراق السحاب " .

والنحل قد يعيش فى مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة ، ورؤية الشمس ضرورية لمعرفة مكان الحقول التى بها الغذاء ، وهنا تكمن الحكمة فى رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجى ، فإنها بذلك يصبح فى إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب ، فلا يموت النحل جوعًا فى حالة اختفاء الشمس خلف الغمام ، حقيقة مذهلة تدل على وجود خالق مدبر ومقدر يعلم مايصنع ، إذ إن القدرة على رؤية ذلك اللون لايمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن ، بل لابد أن تكون قد وجدت منذ أول لحظة خلق الله فيها النحل ، إذ لو لم توجد من أول الأمر لا نقرض النحل فى تلك المناطق منذ أمد بعيد " .

❑ **المثال الرابع : هداية النمل وعجائب صنع الله فيه :**

ويحدثنا ابن القيم عن نوع آخر من مخلوقات الله ، ويبين لنا هداية الله لها فى معاشها فيقول :

" وهذا النمل من أهدى الحيوانات ، وهدايتها من أعجب شئ ، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها ، وإن بعدت عليها الطريق فإذا ظفرت به حملته وساقته فى طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط فى غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها ، فتخزن فيها أقواتها فى وقت الإمكان .

فإذا خزنتها عمدت إلى ماينبت منها ففلقته فلقتين ؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت به ، فنشرته على أبواب بيوتها ، ثم أعادته إليها ، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها "

ويكفى فى هداية النمل ماحكاه الله – سبحانه – فى سورة النمل عن النملة التى سمع سليمان كلامها وخطابها لصحابها بقولها : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فاستفتحت خطابها بالنداء الذى يسمعه من خاطبته ، ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة العموم ، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول ، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش ، فيحطمهم سليمان وجنوده ، ثم اعتذرت عن نبى الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك ، وهذا من أعجب الهداية .

وتأمل كيف عظم الله – سبحانه – شأن النمل بقوله : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ النمل : ١٧ . ثم قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ النمل : ١٨ . فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادى ، ودل على أن ذلك الوادى معروف بالنمل كوادى السباع ونحوه ، ثم أخبر بما دل على شدة

فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم ، فقد عرفت هى والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لايدخل عليهم فيه سواهم ، ثم قالت : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ ، فجمعت بين اسمه وعينه ، وعرفته بهما ، وعرفت جنوده وقائدها ، ثم قالت : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ، ويدخلوا مساكنهم ، ولذلك تبسم نبى الله ضاحكًا من قولها ، وإنه لموضع تعجب وتبسم .

وقد روى الزهرى عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ " نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد " ، وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : " نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة ، فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج ، وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ! فهلا نملة واحدة ! " . [1]

وروى عوف بن أبى جميلة عن قسامة بن زهير ، قال : قال أبو موسى الأشعرى : إن لكل شئ سادة حتى للنمل سادة .

---

(١) صحيح اللبخارى ٦ / ١٥٤ ورقمه ٣٠١٩ ، وانظر ٦ / ٣٥٦ ورقمه ٣٣١٨ ، ورواه مسلم : ٤ / ١٧٥٩ ورقمه ٢٢٤١ ، والحديث مأخوذ من مجموع الروايات الواردة فيه .

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد فى كتاب الزهد من حديث أبى هريرة يرفعه ، قال : (خرج نبى من الأنبياء بالناس يستسقون ، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو مستلقية على ظهرها ، فقال : ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم) ولهذا الأثر عدة طرق ، ورواه الطحاوى فى التهذيب وغيره .

وفى مسند الإمام أحمد : (أن سليمان بن داود خرج يستسقى ، فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك ، فإما أن تسقينا وترزقنا ، وإما أن تهلكنا ، فقال ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم) .

ولقد حدثت أن نملة خرجت من بيتها ، فصادفت شق جرادة ، فحاولت أن تحمله فلم تطق ، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها ، قال : فرفعت ذلك من الأرض ، فطافت فى مكانه فلم تجده ، فانصرفوا وتركوها . قال : فوضعته ، فعادت تحاول حمله فلم تقدر ، فذهبت ، وجاءت بهم ، فرفعته ، فطافت فلم تجده فانصرفوا قال : فعلت ذلك مرارًا ، فلما كان فى المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها فى وسطها ، وقطعوها عضوا عضواً ، قال شيخنا : وقد حكيت له هذه الحكاية فقال : هذا النمل فطرها الله – سبحانه – على قبح الكذب وعقوبة الكذاب .

والنمل من أحرص الحيوان ، ويـضرب بحرصه المثل ، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة ، وسألها : كم تأكل النملة من الطعام كل سنة ؟ قالت : ثلاث حبات من الحنطة ، فأمر بإلقائها فى قارورة ، وسد فم القارورة ، وجعل معها ثلاث حبات حنطة ، وتركها سنة بعدما قالت ، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة ، فقال : أين زعمك ؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات .

فقالت : نعم ، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح بنى جنسك حسبت الذى بقى من عمرى فوجدته أكثر من المدة المضروبة ، فاقتصرت على نصف القوت ، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسى ، فعجب سليمان من شدة حرصها ، وهذا من أعجب الهداية والعطية .

ومن حرصها أنها تكدّ طوال الصيف ، وتجمع للشتاء علمًا منها بإعواز الطلب فى الشتاء ، وتعذر الكسب فيه ، وهى على ضعفها شديدة القوى ، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها ، وتجره إلى بيتها .

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق ، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات ، وكل نملة تجتهد فى صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها .

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لايسقط فى عسل أو نحوه ، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيرًا ، ويملأه ماء ، ثم يضع فيه ذلك الشئ ، فيأتى الذى يطيف به فلا يقدر عليه ، فيتسلق فى الحائط ، ويمشى على السقف إلى أن يحاذى ذلك الشئ ، فتلقى نفسها عليه ، وجربنا نحن ذلك .

وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد ، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل ، فتوجه فى الجهات ليخرج ، فلحقه وهج النار ، فلزم المركز ووسط الطوق ، وكان ذلك مركزًا له ، وهو أبعد مكان من المحيط . (١)

النمل الأبيض غذاؤه ومساكنه :

يحدثنا الأستاذ يوسف عز الدين : عما كشف العلم من أسرار هذا الكائن : " ومن الغرائز التى وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ماهو مذهل ، يجعل كل ذى عقل من البشر يخر ساجدًا للخالق العظيم .

على سبيل المثال مانراه فى مستعمرة نوع من الحشرات نطلق عليه اسم (النمل الأبيض) ، تعيش هذه الحشرات أيضا فى مستعمرات ، إذا زاد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة

---

(١) شفاء العليل ، لابن القيم : ١٠٤ .

لكمية الغذاء المتاحة ، فإن هذه الحشرات تدرك هذه الحقيقة عن طريق الغريزة ، فتبدأ الأفراد فى التهام عدد كبير من البيض ، وبذلك يسهم فى حل مشكلة زيادة أفراد المستعمرة ومشكلة الغذاء ، إذ أن التهام البيض يعتبر تغذية ، وفى الوقت نفسه يقلل من عدد الذرية .

إن هذه الحشرات لاتدرك لماذا تفعل ذلك ، ولكنها النفحة الإلهية التى تلهمها لعمل مالا يمكن أن تدركه من الأشياء التى تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء .

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة ، إذ فى بعض الأماكن الموبوءة بها قد يتناول أفراد السرة طعامهم على منضدة الطعام ، ثم يذهبون فى الصباح لتناول إفطارهم ، فيجدون تلك المنضدة قد تقوضت أركانها ، وانهارت فى خلال ليلة واحدة .

وفى بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عن اسم القرية التى رآها على مدى البصر ، فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أن تلك القرية لاتضم آدميين ، ولكنها المساكن التى أقامها النمل الأبيض ليعيش بها .

هذه المساكن ترتفع عن سطح الأرض عدة أمتار وتصنعها

الحشرات من مادة غريبة ، هى خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى ، وهى أقوى من الإسمنت المسلح ، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إليها الماء من خلال جدرانها ، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل الأبيض .

❐ المثال الخامس : كيفية تصميم العظام والمفاصل :

والعظام فى أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات نحركها عند المفاصل ، فتنقبض عضلات معينة وتنبسط عضلات أخرى فى الوقت نفسه فى توافق عجيب فتتحرك اليد أو الساق أو الأصبع وغيرها فى الاتجاه الذى يرغب فيه الإنسان أو الحيوان ، وتركيب المفاصل مصمم بشكل يسمح بالانزلاق فلا يشعر الحيوان بأى احتكاك .

كما أن تصميم الفقرات فى العمود الفقرى من شأنه تحمل الضغط ، وتجنب الاحتكاك ، وترابط الفقرات مع بعضها ، فهو مصمم تصميمًا مذهلاً ، ويحيط العمود الفقرى بالحبل العصبى لحمايته ، كما تحمى الجمجمة المخ الذى بداخلها ، وتنفذ الأعصاب من الحبل العصبى من خلال ثقوب بالفقرات ، وجميع هذه التصميمات لابد أن تكون قد تكونت فى وقت واحد ، إذ لو اختل جانب منها لأصبحت حركة الحيوان غير ممكنة ، فهل من المعقول أن تحدث كل هذه الترتيبات فى وقت واحد نتيجة مصادفة ؟

❑ المثال السادس : الاعجاز فى تجلط الدم :

ومن المعروف أنه إذا حدث جرح فى أجسامنا فإن الدم الذى يخرج من الأوعية الدموية المجروحة لايلبث أن يتجلط عند مكـــان الجرح ، وهذا تصميم مقصود له حكمته إذ أن الدم المتجمـــد يقفـــل الوعاء الدموى المجروح ، فيوقف بذلك استمرار تدفق الـــدم مـــن الجرح ، ولو لم يحدث هذا التجلط لظل الدم ينزف حتى الموت .

ومما يدل على أن هذا تدبير مقصود من الخالق لحفظ الكـــائن الحى أننا نجده يحدث بطرق متباينة فى الحيوانات المختلفة ، ولكن النتيجة فى جميع الحالات واحدة ، ففى معظم الحشرات إذا جـــرح جسم حشرة كالصرصار مثلاً ، فإن عدداً مـــن الخلايـــا يتجمـــع ، ويكون سدادة تقفل الجرح حتى لا ينزف الدم ، بينما نجد أن الـــدم يتجلط فى بعض الحشرات كما يتجلط دمنا .

والوصول إلى هدف معين بطرق مختلفة . . كمـــا ســـبق أن ذكرت . دليل قاطع على وجود خالق يدبر ويقدر بـــشتى الطـــرق للتوصل إلى نتيجة معينة يكون من شأنها حفظ الكائن الحى .

❑ المثال السابع : قرنا الاستشعار عند البعوض :

ولا يمكن أن يكون عن طريق المصادفة أن قرنى استـــشعار ذكر البعوض به شعيرات أطول من تلك التى فى قرنى استـــشعار أنثاه ، وكان الاعتقاد فيما مضى أن هذه الشعيرات الطويلة مظهـــر

من مظاهر الزينة ، لكى يبدو الذكر جميلاً فى عين الأنثى ، ولكــن اتضح أن هذه الشعيرات التى فى قرنى استشعار الذكر قادرة على التقاط أصوات خاصة تحدثها أنثى البعوض وهى بعيدة عن الــذكر بعدًا شاسعًا ، وأصوات الأنثى هذه ذات موجات خاصة تشبه إلــى حد كبير موجات الإذاعة .

ويحرك الذكر قرنى استشعاره فى شتى الاتجاهات كما نحرك نحن هوائى التلفزيون لتصبح الصورة الملتقطة أكثــر وضــوحًا ، وفى وضع خاص يلتقط قرنا الاستشعار صوت الأنثــى واضــحًا ، وعن طريق زاوية قرن استشعاره يدرك الذكر غريزيًا مكان الأنثى التى تحدث الصوت ، فيطير نحوها بأقصى ســرعته حيــث يــتم التزاوج بينهما .

وهكذا نرى أن البعوض قد منحه خالقه هذه القــدرة العجيبــة التى تمكنه من إدراك صوت الأنثى البعيدة عنه بعشرات " الأمتار " على الرغم من وجود أصوات أخرى عديدة يموج بها الجو ، ولــو لم يحدث ذلك لما تمكن الذكر من العثور على الأنثى بسهولة ، ولما تمكن البعوض من البقاء جيلاً بعد جيل .

إنها محطة استقبال إذاعى فى قرنــى استــشعاره اســتخدمها البعوض قبل أن يتمكن الإنسان من التوصل إلى أسرار الإرســال اللاسلكى بملايين السنين ، فهل يمكن أن يحدث مثل هذا عن طريق مصادفة عمياء ؟

❐ المثال الثامن : حيوانات تومض فى الظلام :

ومن الحشرات ما تنبعث من أنثاها أضواء تومض فى الظلام ومضات ذات تردد معين يميزها ذكر هذا النوع من الحشرات بالذات ، ولا تختلط عليه مع ومضات ضوئية لحشرات أخرى ذات تردد مختلف . عندما يرى الذكر هذه الومضات التى لا تكاد تدركها عيوننا يطير إلى أنثاه ، فيحدث التزاوج ليستمر بقاء النوع .

إن العلوم الرياضية تثبت أن مثل هذا التنظيم والترتيب لايمكن مطلقًا أن يكون من صنع " طبيعة " لا عقل لها ، بل هو تخطيط من صنع خالق يعلم ماذا يصنع ويرتب ويقدر أروع تقدير لبلوغ هدف معين

❐ المثال التاسع : عملية الهضم فى الحيوان :

ونحن نعلم أن تقطيع الطعام إلى أجزاء صغيرة أمر ضرورى لتسهيل عملية الهضم ، والأسنان ذات تركيب وتنظيم متباين فى الحيوانات المختلفة ، ولكنها تؤدى الوظيفة نفسها وهى تقطيع الطعام . .

وترتيب الأسنان فى الإنسان ترتيب مذهل إذ توجد قواطع وأنياب وأضراس مرتبة ترتيبًا خاصًا يجعل لكل نوع منها وظيفة معينة . ولا توجد أسنان للحيوانات التى لاتحتاج إليها ، كتلك التى تتغذى على السوائل حيث تزود بوسائل خاصة لارتشاف الغذاء

السائل وتوصيله إلى القناة الهضمية . وفــى أثنـــاء المـــضغ فـــى الحيوانات ذات الأسنان تفرز الغدد اللعابية إفرازها ليختلط بالغــذاء حيث تبدأ عملية هضمه .

وفى المعدة والأمعاء – كما ذكرت فيما سبق – يفرز الحيوان (أنزيمات) يؤثر كل واحد منها فى نوع معين مـــن الغـــذاء ، ولا يؤثر فى الأنواع الأخرى .

❐ المثال العاشر : تكون الجنين :

وعملية تكوين الجنين فى أى حيوان عملية مذهلـــة ، يكتفـــى العلم بملاحظة وشرح خطواتها ، ولكنه يقف عاجزًا عـــن معرفـــة كنهها ، والقوى التى تدفع بها نحو هدف محدود هو تكـــون جنـــين لحيوان معين .

تبدأ هذه العملية بانجذاب الخلية الذكرية (الحيـــوان المنـــوى للذكر) نحو الخلية الأنثوية (بويضة الأنثـــى) فتتكـــون الخليـــة الملقحة وتبدأ الخلية الملقحة بعد ذلك فى الانقسام بوســـاطة قـــوة عجيبة كامنة فيها ، فتصبح الخلية خليتين ، ثم أربع خلايـــا ، ثـــم ثمانى خلايا ، وهكذا . . حتى يصل عدد الخلايا إلى حد معـــين ، فتصبح على هيئة كرة جوفاء جدارها مكون من طبقة واحـــدة مـــن الخلايا ، ثُم ينغمد نصف الطرة داخل النصف الآخر ، فتصبح ذات جدارين خلويين .

وفى معظم الحيوانات – ومنها الإنسان – تتكون بين الطبقتين طبقة خلوية ثالثة ، وتستمر الخلايا فى الانقسام ، فتتكون من كل طبقة من الطبقات الثلاث أعضاء معينة .

فمن الطبقة الخارجية يتكون الجلد والجهاز العصبى ، وبعض أجزاء أخرى ، ومن الطبقة الوسطى تتكون العضلات والعظام ، ومن الطبقة الداخلية تتكون بعض أجزاء الجهاز الهضمى ، ويستمر انقسام الخلايا ، حتى يتم تكون الجنين داخل الرحم فى الحيوانات الثديية أو داخل البيضة فى الحيوانات التى تبيض ، وعند اكتمال تكوين الجنين يلفظ الرحم ذلك الجنين خارج الجسم فى الحيوانات الثديية ، ويكسر البيضة ويخرج منها فى الحيوانات التى تضع بيضا .

وفى هذا يقول الشاعر الشيخ يوسف الضاهر فى قصيدة مخمسة على هيئة خطاب من رب العزة إلى الإنسان موضحا نعم الخالق فى حفظ الإنسان جنيناً ثم تركيبه بعد ذلك على تلك الهيئة فى أحسن تقويم مما يدل على وجود البارى وتوحيده وقدرته يقول الشاعر : [1]

اقصر عناك عن الردى ياعبدنا ∴ وأتبع سبيل الحق واسلك رشدنا

فإلى متى تعصى ونحصى عندنا ∴ ياغافلاً أخذ الغواية دينا

(١) قصيدة مخمسة للشيخ يوسف ضاهر .

قم وأنتبه فالعمر ويحك قددنا

فضلى عظـيم فابتهـل لعطيتـى ∴ واشكر لنعمائى عليـك ومنَّتـى

لا تدَّعى كفـرًا فتكفـر نعمتـى ∴ إن كنت تنكـر منتـى وهـدايتى

فمن الذى أنشأك من حوز الفنا

ركَّبت جسمك من لحوم مـع دم ∴ ومفاصل قد جمعت مـن أعظـم

من أنشأ صُلبك بارتفـاع قـوائم ∴ ومن الـذى سـواك خلقـة آدم

شكلاً بديعًا بالجمال تكونا

لما جمعـت الوالـدين توقفـت ∴ لك منهما جمعيـة قـد حققـت

ونزلت نطفة ماء صـلب رققـت ∴ فأنلتها الأمـلاك حـين تـدفقت

حفظًا وتربية بزائد فضلنا

وبقيـت مقبـورًا بـأقبح بقعـة ∴ من أربعـين لأربعـين لمـضغة

طورًا وأنت بغيـر روح مثبـت ∴ ونفخت فيك الروح بعـد ثلاثـة

سرًا خفيًا ليس يدرك بالعنا

وغدوت فى الأرحام ضمن ظلامنا ∴ وجعلتها نـورًا عليـك بأمرنـا

وعظام رأسك جمعت من فـضلنا ∴ وشققت آذانـاً لـسمع كلامنـا

وفتقت أحداقًا لتبصر صنعنا

ولحفظ عينـك شـعرها أنبتُّـهُ ∴ والفرق بين الحـاجبين وضـعته

وكتبـت كـالنونين مازينتـه ∴ والوجـه قـد زينتـه وملأتـه

ماء الحيا لتصونه عن غيرنا

فانظر لها نظر البـصير تـشوفا ∴ فترى المهيمن بالتفضل مـسعنا

وتراك من بحر المكـارم غارفـا ∴ فأرحت قلبـك بـالهواء تلطفـا

لتنفُّس كى لا تضيق وتحزنا

عبدى علىَ اللذات دمت مطالبـا ∴ وعكفت فى لهو الهوان تحجبـاً

ولما أمرتك كنت عنـه مجانبـا ∴ وأبيـت إلا أن تكـون محاربـا

وكفرت نعمتنا وملت لغيرنا

فمن الذى يحميك حين تركتنـى ∴ ومن الذى يرضيك إن أغضبتنى

عجبًا أراك لباب غيـرى تنثنـى ∴ وأتيت للمخلوق ثـم عـصيتنى

وأنا الذى عندى مفاتيح الغنا

❐ المثال الحادى عشر : تركيب الأذن :

وتركيب الأذن فى الإنسان وفى عدد من الحيوانات الأخـرى لايمكن لأى عاقل أن يتصور حدوثه عن طريق المصادفة ، فللأذن طبلة تستقبل الموجات الصوتية فتتذبذب ، وهذه الذبذبات تؤثر فـى ثلاث عظام دقيقة مرتبة ترتيبًا رائعًا . والضغط على جانبى الطبلة ينبغى أن يكون متساويًا ولهذا الغرض تمتد أنبوبة خلـف الطبلـة توصل إلى تجويف الأنف ، ويصل بالجزء الداخلى للأذن عظمـة تشبه القوقعة فى شكلها ، ووظيفتها تحليل الصوت ، وتمييز الأنغام

المختلفة ، كما أن من وظيفتها أيضا إحداث الاتزان ، إذ لولاها لما استطعنا أن نخطو خطوة واحدة دون أن نترنح ونسقط .

وتنتقل الذبذبات بعد ذلك عن طريق الأعصاب إلى مركز السمع بالمخ ، ليدرك الإنسان أو الحيوان سماع الأصوات المختلفة بعضها عن بعض . هل يمكن أن يحدث كل هذا فى وقت واحد عن طريق المصادفة ؟ إن نظرية الاحتمالات فى العلوم الرياضية تنفى إمكان ذلك نفيًا قاطعًا .

❑ المثال الثانى عشر : ديدان الفيلاريا .

وتحدث فى الكائنات الحية أشياء عجيبة ، لاتعد ولا تحصى ، تدل على وجود قوة عليا ترتب وتقدر لاستمرار بقاء الكائنات ، أشياء لايمكن أن تحدث عن طريق المصادفة ، منها مثلاً : مايحدث فى دورة حياة الديدان التى تسبب المرض المسمى بمرض الفيل ، وهى التى نسميها ديدان (الفيلاريا) .

تغيض هذه الديدان فى طورها الكامل فى الأوعية الليمفاوية والغدد اللمفاوية للإنسان ، وتسد الأوعية اللمفاوية ، فتسبب تضخم بعض الأعضاء ، وعلى الأخص الساقين أو إحداهما ، حيث تصبح ساق الإنسان فى حجم ساق الفيل .

وتتزاوج هذه الديدان فى أثناء وجودها داخل الأوعية اللمفاوية للإنسان ، وتنتج ديدانًا صغيرة تنتقل من الأوعية اللمفاوية إلى

الأوعية الدموية ، وإذا بقيت هذه الديدان فـــى الأوعيـــة الدمويـــة للإنسان فإنها تعجز عن إتمام دورة حياتها إذ لابد لها من أن تنتقـــل إلى جسم بعض أنواع البعوض لكى تتم تلك الدورة ، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان ، فإذا امتصت البعوضة دم إنسان مصاب فإنها تمتص مع الدم عددًا من هذه الديدان الصغيرة التى تنمو داخل جسم البعوض حتى يكتمل نموها ، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان إذا حقنتها البعوضة فى دمه فى أثناء عملية امتصاصها لـــدم الإنـــسان الذى تتغذى عليه .

ولقد حاول العلماء الحـــصول علـــى هـــذه الديـــدان مـــن دم المصابين بهذا المرض ولكن جميع محاولاتهم كانت تبوء بالفـــشل إلى أن حدث شئ عجيب .

فى إحدى الليالى كان أحد العلماء ساهرًا فى معمله حتى ســـاعة متأخرة من الليل ، فأخذ عينة من دم إنسان مصاب وفحصها تحـــت الميكروسكوب ، وفوجئ بعدد هائل من هذه الديدان فى العينة التـــى أخذها وفى أثناء النهار فى اليوم التالى أخذ عينة من المصاب نفسه فلم يجد للديدان أثرًا ، احتار فى تفسير هذه الظاهرة العجيبة ، لمـــاذا توجد هذه الديدان فى عينة الدم إذا أخـــذها مـــن المـــصاب لـــيلاً ، ولا تظهر إذا أخذها نهارًا ؟

واتضح أن تلك الديدان الصغيرة تهرب إلى الأوعية الدمويـــة

الداخلية فى أثناء النهار ، ثم تعود إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد فى أثناء الليل ، والحكمة من ذلك هى أن البعوض الذى يتغذى على دم الإنسان فى هذه الأماكن لا ينشط إلا فى أثناء الليل ؛ ولذا فإن الديدان تنتقل إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد ؛ لكى يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم لتتم دورة حياتها داخل جسم البعوضة ، ومن الطبيعى أن هذه الديدان لاتدرك شيئا ولا تعلم شيئا عن البعوض التى ستتم دورة حياتها داخل جسمه ؛ بل تفعل هذا عن غريزة ، أى إن هناك قوة عليا تملى عليها هذا التصرف لكى تستمر حياتها .

ومن العجيب أنه فى الأماكن التى تنشط أنواع البعوض التى تمتص الدم نهارًا ولا تنشط ليلاً نجد أن الديدان تفعل العكس ، حيث تبقى فى الأوعية الدموية الداخلية ليلاً ، وتهاجر إلى الأوعية الدموية نهارًا ، ليتمكن البعوض فى هذه الحالة أيضا من امتصاصها مع الدم ، فهل من الممكن أن يحدث هذا عن طريق المصادفة ؟

❐ المثال الثالث عشر : مغناطيسية الأرض :

إذا تركنا تركيب الكائنات الحية وما فيه من إعجاز تتيه فيه العقول وتأملنا فى الكون الرحب وجدنا عجبًا ، أولى هذه العجائب المغناطيسية الكامنة فى الكرة الأرضية ، وهى التى تربطنا

بالأرض وتمنعنا من أن نتبعثر فى الفضاء فى أثناء دورانها .

هذه المغناطيسية تختلف عن المغناطيسية التـــى نجـــدها فـــى القضيب المغناطيسى . . . ، إننا نعلم أن القضيب المغناطيسى قادر على جذب بعض الأشياء ، ولكنه يعجز عن جذب أشـــياء أخـــرى كاللحم والورق والزجاج والحجارة والرمل والماء وغيرها . . . ، ولكن مغناطيسية الأرض تجذب كل شـــئ ، تجـــذب أجـــسامنا ، وتجذب الزجاج والرمل والماء والحجارة والورق ، إذ لو لم تجذب الأرض إليها هذه الأشياء لما بقى على سطحها شئ .

□ **المثال الرابع عشر : أحجام الأجرام الـــسماوية وابعادهـــا ومداراتها :**

ولقد ذكر (فردهويل) أستاذ الفلك بجامعة لندن فـــى كتابـــه (طبيعة الكون) أن من الكواكب مايبلغ حجمًـــا مـــذهلاً لا يكـــاد يتصوره العقل ، إذ تبدو الكرة الأرضية بالنسبة لأحد هذه الكواكب العملاقة كحبة الرمل .

يقول العالم الأمريكى الكبير (كريستى موريسون ٩ الـــرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك : " إن وضع الأجرام الـــسماوية ليس مجرد مصادفة عشواء ، بل هى موضوعة فى الفضاء بحسبان إذ إن القمر مثلاً لو كان أقرب إلى الأرض بمقدار ربـــع المـــسافة التى تفصلنا عنه لأصبح المد والجزر عنيفين حيـــث يغـــرق المـــد

جميع أجزاء اليابسة ، فتموت غرقًا جميع حيوانات اليابسة نتيجة لذلك ، كما أن محور الأرض لو لم يكن منحرفًا بمقدار نحو ثلاث وعشرين درجة لترتب على ذلك وجود ليل دائم عند القطبين ، وتكون من بخار ماء المحيطات كميات هائلة من الجليد تضغط على القطبين فيتفرطح خط الاستواء ، ويقل هطول الأمطار بدرجة تجعل الحياة مستحيلة على الكرة الأرضية .

وتبلغ سرعة دوران الأرض نحو ألف ميل فى الساعة ، فلو فرضنا أنها تدور بسرعة مائة ميل فى الساعة فقط ، لطال كل من الليل والنهار وترتب على ذلك أن جميع النباتات والحيوانات تحترق نهارًا من شدة الحرارة ، وتتجمد ليلاً من شدة البرد " .

وفى كتاب ضخم للدكتور جود أستاذ الفلسفة بجامعة لندن تناول بالدراسة ضمن ماتناوله شتى احتمالات نشأة الكون ، ونشأة الحياة من الوجهة العلمية والفلسفية ، وخلص من هذه الدراسة المستفيضة إلى أن الكون لابد أن يكون نشأ نتيجة لعملية خلق رائعة وصدق الله إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فصلت : ٥٣ .

هذا غيض من فيض مما سطرته أصابع القوة العليا على صفحات ألكون والتى تشهد بأنه من الضرورى عقلاً أن لهذا الكون مكون وأن هذا التدبير موجود عن مدبر . وأن القول بغير هذا هو

خروج عن حد المعقول ، ودخول فى سفسطة عقيمة لاقيمة لها فى دنيا العلم والبرهان . وفى هذا المعنى يقول الشيخ يوسف الـــضاهر فى قصيدته المخمسة :

كــل العـــوالم بالثنـــاء مجيبـــة ∴ طوعًـــا وكرهـــا للبـــصير قريبـــة

فانظر إلى الآيات وهـــى غريبـــة ∴ تلك الجوارى فى البحـــار عجيبـــة

فكأنها الأعلام تشهد قدرنا

تمشى هوينا بـــالهوى وتـــرددا ∴ والمـــاء لـــيس بطبعـــه متجمـــدًا

حتـــى إذا مـــا جئتهـــا متعـــودًا ∴ فركبت فيهـــا بالوقايـــة والهـــدى

لو شئت اسكنت الرياح فتسكنا

وأنا البديع الصنع فـــى إحكامـــه ∴ أبديت نظم الكـــون مـــن اعدامـــه

فالنور يبدو مـــن ثنـــا أكمامـــه ∴ والليـــل قـــد غـــشيته بظلامـــه

وتنفس الصبح المضيئ بنورنا

من الذى بسط الأراضـــى للمـــلا ∴ فوق الميـــاه الجاريـــات تسلـــسلا

وبها الجبـــال الراســـيات تنـــزلا ∴ ومن الذى رفع السماء إلى العـــلا

والسحب فى جو السماء تكونا

من الذى للريح أحكـــم ســـيرها ∴ الرعد بالتـــسبيح أحـــسن ســـرًها

والبرق يلمع من جـــلال أثرهـــا ∴ ومن الذى للشمس أبـــرز نورهـــا

والبدر سابقها بحكمة أمرنا

لاينبغـــى للـــشمس أن يتقـــدما ∴ وضياؤه مـــن نـــور قـــد أحكمـــا

فمن الذى منها لـــه قــد قـــسما ∴ ومن الذى نشر الكواكب فى السما

يهدى بها السارى طريقا بينا

أيقظ عيون الفكر فـــى تنميقهـــا ∴ وأشرح صدور الذكر فى تحقيقهـــا

وتأمل الصنع الجميـــل بخلقهـــا ∴ إن الحـــوادث بـــاختلاف طريقهـــا

دلت على صنعى بإثبات الفنا

كل العوالم،من بـــديع صـــنيعتى ∴ قامـــت علـــى الافـــراد بالأحديـــة

فانظر إلى الملكوت تعرف قدرتى ∴ حجبى مع الأملاك شاهد وحـــدتى

واللوح والقلم المحرك بالثنا

۞ ۞ ۞

الفصل الثالث
أسماء الله الحسنى

** عدد الأسماء الحسنى .

** فوائد العلم بها .

** اسم الله الأعظم .

أسماء الله الحسنى

من المقرر لدى المسلمين أن الله عز وجل له أسماء حسنى ، هى وسيلة من وسائل معرفته سبحانه وتعالى . ندعوه بها الإيمان بها ، وعدم الإلحاد فيها بالزيادة أو النقصان .

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ﴾ الأعراف ١٨٠ . .

وقال : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . الإسراء : ١١٠ .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ . الحشر ٢٤ .

والإيمان بهذه الأسماء الحسنى هو جزء من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، والكلام حولها يتحدد فى عدة نقاط .

الأولى : عدد الأسماء . قد ورد فى الحديث الصحيح قول النبى (إن لله تسعة وتسعين إسما من أحصاها دخل الجنة) .

فهذا يدل على أن لله عددًا محددًا من الأسماء هى تسعة وتسعون إسماً . وهذا مذهب بعض العلماء الذين حصروا العدد فى ماورد فى سنن الترمذى الذى ذكر الأسماء التسعة والتسعين .

وهناك من يرى أن العدد أكثر من ذلك مستدلا بحديث رواه

ابن مسعودًا عن النبى أنه قال : (ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزن فقال : اللهم أنى عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، نور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا) .

وجاء فى ثناء الرسول على ربه سبحانه (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

فهناك من الأسماء الحسنى مالا نعرفها وهى التى استأثر الله عز وجل بعلمها ، وهناك بعض آحاد الناس يعرف بعض الأسماء .

والحق الذى ينبغى معرفته أن مايجب الإيمان به تفصيلا هو الإيمان بالعدد ، والأسماء التسعة والتسعين ، وأن هذا العدد من أحصاه دخل الجنة .

❋ ❋ ❋

فوائد العلم بالأسماء الحسنى

قول النبى ﷺ : من أحصاها دخل الجنة يشير إلى فائدة إحصاء الأسماء الحسنى . لكن مامعنى الإحصاء ؟

فقد قيل الإحصاء معناه الحفظ ، وقيل المراد بالإحصاء الإطاقة والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء ، والعمل بمقتضاها . فإذا قال : الرزاق وثق بالرزق ، وإذا قال الحكيم . سلم لجميع أوامره وأقداره ، وأنها جميعها على مقتضى الحكمة .

ولاشك أن حفظها ضرورى حتى يعمل بها العبد قدر طاقته .

أما فوائد العلم بهذه الأسماء فيمكن إيجازها فيما يلى :

١ – معرفة الله عز وجل إذ هى وسيلة عظمى لمعرفة الله .

٢ – تمجيد الله عز وجل وذكره والثناء عليه .

٣ – دعاء الله بهذه الأسماء كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾ .

٤ – الشعور بالثبات والثقة فى حياة العبد ، وعدم اليأس ، فهو يواجه المصاعب بثقة لإيمانه بالقوى المتين ، وهو يراقب الحق فى تصرفاته لإيمانه بالعليم .

أسماء الله توقيفية :

من الأصول المقررة عند أغلب العلماء – خاصة أهل السنة والجماعة – أن أسماء الله تعالى توقيفية لا مجال فيها لتدخل

العقل بنفى ماورد فى النصوص الصحيحة أو إثبات مالم يرد فيه نص – وهذا هو رأى الجمهور – بخلاف المعتزلة ، والقاضى الباقلانى .

والدليل على خطأ ماذهب إليه المعتزلة :

١ – أن إباحة إطلاق اسم على الله لم يرد به نص هو قول على الله بغير علم ، ورجم بالغيب وهو ممنوع لقول الله : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأعراف ٢٨ .

٢ – إنه تشريع فى الدين بما لم يأذن الله تعالى وهو فى حقيقته ابتداع ، وهو نوع من الإلحاد . ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الأعراف ١٨٠ .

٣ – إن أسماءه حسنى ومهما اجتهد الإنسان فلن يوفق للتعرف على الاسم الأحسن . قال ابن القيم (لله من صفات الإحسان . البر ، الرحيم ، الودود ، دون الرفيق والشفيق ، وكذلك العلى العظيم دون الرفيع الشريف ، والكريم دون السخى والغفور ، العفو دون الصفوح الساتر) .

٤ – إذا كان البشر لا يرضون أن يُسَمَّوا بغير اسمائهم فكيف يجوز ذلك فى حق الله تعالى خالق البشر .

٥ – إن جواز إطلاق أسماء على الله عقلاً هو تقديم بين يدى الله ورسوله ، والحق قال : ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الحجرات ١ .

اسم الله الأعظم

أخبرنا الرسول ﷺ فى أكثر من حديث أن لله إسماً أعظم له مميزات عن بقية الأسماء من هذه الأحاديث : (أنه ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله . لا إله إلا أنت . الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد . فقال : دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب) .

ومنها عن أنس رضى الله عنه قال : (كنت جالسا مع النبى ﷺ فى المسجد ورجل يصلى ، فقال : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السماوات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، ياحى يا قيوم أسألك . فقال النبى : دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى) .

ومنها قوله ﷺ : (اسم الله فى سور من القرآن ثلاث : فى البقرة ، وآل عمران ، وطه) .

ومنها قوله ﷺ : (اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وفاتحة آل عمران : ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ ﴾ .

وقد اختلف العلماء حول اسم الله الأعظم :

فمنهم من أنكر أن يكون هناك اسم خاص يطلق عليه أنه أعظم . وقالوا : إن كل اسم لله هو أعظم ولا يجوز تفضيل بعض

الأسماء على بعض .

ومنهم من أقر بوجود اسم أعظم لله عز وجل ، وهؤلاء انقسموا إلى فرق شتى . ففريق يرى أنه مما استأثر الله بعلمه ، وفريق يرى أنه لفظ الجلالة (الله) . وفريق يرى أنه الحى القيوم ، ومن قال إنه الحنان المنان .

ومن العلماء من قال إنه ضمن الأسماء الحسنى ، وقد أخفاه الله كى يجتهد العباد بالدعاء بكل الأسماء ، وقد يكون مركبا من أكثر من اسم .

وأرى أن اسم الله الأعظم وهو الذى يكون حين وروده يصادف انفتاح القلب وخشوعه ، وانشراح الصدر ، وانبساط النفس ، ساعتها إذا دعى العبد الله استجاب وإذا سأل العبد الله أعطى .

فحين يتوافق الاسم وقت الدعاء مع خشوع القلب وحضوره ينتج عنهما إجابة الدعاء .

الفرق بين الاسم والصفة :

هناك من يقول : إذا كانت أسماء الله توقيفية فلماذا يطلق على الله الموجود ؟ وللإجابة على ذلك نقول :

إن هناك فرقا بين الاسم والصفة . فالاسم ما أطلقه البارى سبحانه على نفسه بخلاف ما يطلق عليه من صفة .

فكل مايرجع إلى الاسم فهو موقوف على إذن الشرع ، وما يرجع إلى الوصف فذلك لا يقف على إذن الشرع ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب ، ويكون من باب الإخبار عنه .

فزيد مثلاً إسمه زيد ، وهو فى نفسه أبيض وطويل وعالم . فلو قال له قائل : يا عالم ، ويا طويل فقد دعاه بما هو موصوف به وصدق ، ولكنه عدل عن اسمه .

فاسم كل واحد ما سمى به نفسه أو سماه به وليه .

والتسمية تصرف فى المسمى ، ويستدعى ذلك ولاية ، وهذه الولاية تكون للإنسان على نفسه ، أو على عبده ، أو على ولده . فلذلك تكون التسمية لهؤلاء ولذلك لو وضع غير هؤلاء اسمًا أنكره المسمى .

فالله سبحانه وتعالى ليس لنا أن نزيد على ماورد من أسماء له ولكن فى معرض الأخبار عن وصفه فيجوز . فنقول إذًا أنه موجود . لأنه فى مقابلة من يقول إنه – تعالى – معدوم . وأنه سبحانه يوصف بالقِدم فى مقابلة الحدوث مع الأخذ فى الاعتبار أنه إذا ثبت الاسم دل على ثبوت الصفة العليا دون العكس . إذ لا يلزم من ثبوت الصفة ثبوت الاسم .

فالعليم يدل على ثبوت صفة العلم ، والقادر يدل على ثبوت صفة القدرة ، بخلاف الصفة فإنها لا تدل على ثبوت الاسم . فالله سبحانه وتعالى له صفة اسمها الكلام ، ولم يرد فى النص أنه متكلم .

ملحوظة : هناك أسماء تطلق على الله سبحانه وعلى المخلوق وبينهما من الفرق كما بين الخالق والمخلوق مثل القادر اللطيف ، العالم

وهناك من الأسماء مالا تطلق إلا عليه مثل الله ، المحيى ، المميت ، القدوس ، ومالك الملك .

ومن الأسماء مايوصف به مطلقا ويوصف به غيره مقيدًا كالرب ، والقابض الباسط .

ومن الأسماء مايوصف البارى بها مدحًا وتكون فى غيره ذمًا ، مثل الجبار والمتكبر .

ومن الأسماء مالا يطلق عليه إلا بمقابلة لأنه إن أطلق وحده أوهم نقصاً فلا نقول : الضار دون ذكر النافع .

ومن الأفعال مالا يطلق عليه إلا على سبيل الجزاء والمقابلة ، ولا يجوز أن يشتق لله منها اسمًا . ولا تطلق عليه فى غير ماسيقت له مثل : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ النساء ١٢٤ ، ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ آل عمران ٥٤ ، ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ التوبة ٦٧ ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ البقرة ١٤ ، ١٥ .

فلا يطلق عليه سبحانه مخادع ، أو ماكر ، أو ناسى ، أو مستهزئ

الفصل الرابع
صفات الله

** توحيد الله .

** قدرة الله .

** صفة الإرادة .

** صفة العلم .

** صفة الحياة .

** صفتا السمع والبصر .

** صفة الكلام .

** الصفات الخبرية.

صفات الله

من المعلوم أن الإيمان بالله ومعرفته سبحانه وتعالى لا يكملان إلا بمعرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حقه سبحانه وتعالى .

ومعرفة الصفات الإلهية والإيمان بها من أوجب الواجبات على المسلم ، ومن أهم مطالب الشرع .

فالمؤمن الحق هو الذى يصف الله عز وجل بما يصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ .

لأن الله أعلم بنفسه ، ولأن رسوله أعرف الخلق به ، ثم هو لا ينطق عن الهوى بل إنه ﷺ حين وصف الله عز وجل إنما كان بوحى خالص . وقبل الخوض فى مسألة الصفات علينا أن نقرر ثلاثة مبادئ كانت هى النبراس الذى سار على هديه سلف الأمة فى إيمانهم بصفات الله .

أولاً : يجب أن نثبت لله عز وجل ما أثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله ﷺ . فالأسماء والصفات توقيفية من الشارع الحكيم .

لكن مع التفرقة بين الأخبار عن الله وإطلاق الاسم عليه سبحانه . فمثلاً : حين نقول : الكلام عن وجود الله ، ونخبر بأنه سبحانه موجود ، لاضير فى ذلك شرط أن لا نجعل اسم الموجود

من الأسماء الحسنى .

ثانيًا : يجب معرفة أن الصفات فرع عن الذات ، والذات الإلهية ليس كمثلها شيئ ، معنى ذلك أنه يجب أن ننفى عن الله كل مشابهة للحوادث فيما يتعلق بالصفات ، فليست صفاته تعالى كصفات المخلوقين ، كما أنه ليس فى المخلوقين من له صفة تشبه صفته .

ثالثاً : عدم محاولة إدراك حقيقة الصفات كمـــا لـــم نـــستطع إدراك حقيقة الذات . فالعقل عاجز عـــن إدراك الحقيقـــة بالنـــسبة للصفات كما كان عاجزا بالنسبة للصفات . وقديما قـــالوا : العجـــز عن إدراك حقيقة الذات إدراك .

فإذا ماحاول العقل إدراك الصفات يقال له : ليس عشك فادرجى لأنه كالدابة توصلك إلى السلطان ولا تدخل بها على السلطان كما أسلفنا .

رابعًا : لسنا مكلفين بمعرفة هل الصفات زائدة على الذات أم لا ، وهذه المعضلة قد أرهقت العقول الإسلامية ردحًا من الزمن ولم يصلوا فيها إلى حلول تريح العقل والقلب معاً .

بل كانت هذه الأبحاث سببا فى استنفاذ طاقات عقلية وفكريـــة لو وجهت إلى ما يفيد من موضوعات كان ذلك أولى وأفيد للأمة .

ثم إنها فى كثير من الأحيان كانت تؤدى إلى زعزعة الإيمان فى قلوب الناس خاصة من غير المتخصصين . وهذا هـو الـسر وراء رجوع كثير من العلماء عن هذا الخط ودعوتهم الرجوع إلـى منابع العقيدة الصافية المأخوذة مـن كتـاب الله وسـنة رسـوله . أو مايطلق عليه دين العجائز .

أقسام الصفات :

قسم العلماء الصفات الواردة فى الكتاب والسنة إلى أقسام عديدة .

فمنهم من قسمها إلى أربعة أقسام :

١ – نفسية (الوجود) .

٢ – سلبية (القدم والبقاء والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية) .

٣ – معانى (العلم ، القدرة ، السمع ، البصر ، . . .) .

٤ – معنوية (كونه سمعيًا ، كونه عالما ، . . . إلخ) .

ومنهم من قسمها إلى قسمين :

١ – صفات سلبية (الوحدانية ، القدم ، والبقاء . . .) .

٢ – صفات ذاتية (العلم ، القدرة ، . . .) .

ونحن من خلال استعراضنا لما ورد فى الكتاب والسنة عن

الحق سبحانه وتعالى يمكن لنا تقسيم الصفات الإلهية إلى صفات عقلية ونقلية ، وصفات نقلية فقط . بمعنى أن هناك صفات يمكن أن يقام على ثبوتها دليل عقلى مستقل عن النقل ، ثم هى قد ورد عليها الدليل فى الكتاب والسنة .

وهناك صفات لا يمكن عقلاً إقامة الأدلة عليها ، ولا عمل للعقل سوى التسليم للنقل فيها مع عدم إحالتها عقلاً .

القسم الأول : صفات عقلية نقلية :

وهذا القسم من الصفات إذا ما قورن بالصفات الواردة فى الكتاب والسنة دون إقامة الدليل العقلى عليه يعد قليل . ومن هذه الصفات : الوحدانية – العلم – القدرة – الإرادة – الكلام – السمع – البصر . والتى تعتبر اضدادها نقائص يحيلها العقل على الله سبحانه وتعالى .

❋ ❋ ❋

توحيد الله عز وجل

توحيد الله عز وجل من أهم أركان العقيدة الإسلامية ، بل هى أهم ما بعثت به الرسل وأنزلت به الكتب . قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء ٢٥ .

بل إن توحيد الله أهم مافى كون الله وقد ورد أن موسى قال : يارب خصنى بشيئ . فقال الله : ياموسى قل لا إله إلا الله . فقال موسى يارب كل الناس يقولون لا إله إلا الله . فقال ياموسى لو أن السماوات والأرض فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله . ولذلك كانت دعوة الرسل لقومهم (مالكم من إله غيره) .

ومعنى توحيد الله : نفى الشريك له ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً . فالمؤمن الموحد هو الذى يعتقد أن الله واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله .

ومعنى توحيد الذات : اعتقاد أن الله ليس له شريك ، وأن الله ليس مركبًا من أجزاء . ولهذا قال الله : (وإلهكم إله واحد) وقال أيضا : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ . فهو واحد لا يتعدد وأحد لا يتجزأ .

ومعنى توحيد الصفات : أنه لا توجد صفة تشبه صفته ، ولا أن صفته تشبه صفات المخلوقين . فالله له سمع ، والمخلوق له سمع ، ولكن سمع الله ليس كسمع المخلوقين .

ومعنى توحيد الأفعال : أنه ليس للمخلوقين فعل يشبه فعله تعالى ، فالعبد قد يخلق مجازا . كما قال الله عن عيسى عليه السلام (أنى أخلق لكم من الطين) .

ولكن هذا الفعل من عيسى لا يشبه فعل البارى سبحانه ، ولهذا قال الله ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ . وإلا فالحقيقة أنه لا فعل للمخلوق أصلاً . قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

❐ الدليل العقلى على وحدانية الله :

لو وجد إلهان (افتراض جدلى) [1] فإما أن يتفقا ، وإما أن يختلفا . فإن اتفقا بأن يخلقا زيدا ، فإما أن تكون كل ذرة فى زيد واقعة بقدرتهما معًا وهذا مستحيل لأنه محال وجود مؤثرين على أثر واحد ، أو يكون على سبيل التتابع بأن يوجد أحدهما الذرة ثم يوجدها الآخر .

---

(١) افتراض مستحيل للوصول إلى الحق والحقيقة . كما قال سبحانه ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ الزخرف : ٨١ .

وهذا تحصيل حاصل لأنه إيجاد للموجود .

وإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد زيد والآخر إعدامه . فإن نفذ مرادهما معًا كان محالاً لأنه سيكون زيد موجودًا معدوما . وإن لم ينفذ مرادهما وهو محال أيضا لارتفاع النقيضين ، ثم مع هذا الافتراض يكونا ليسا بالهين لعدم نفاذ مرادهما .

وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر فيكون الآخر ليس بإله ، والذى نفذ مراده ليس بإله أيضًا لأن المفترض أنه مثل الآخر .

فوجود إلهين محال .

❑ الدليل **النقلى** :

قال تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء : ٢٢ وقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الإسراء : ٤٢ . ، وقال : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ، وقال (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) .

وقال رسول الله ﷺ : (أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) ، وقال : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) .

ومعنى كلمة لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله .

وقد وضع العلماء شروطًا توضح أن مجرد النطق بها لا يفيد من هذه الشروط :

١ – العلم بمعناها كما قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ محمد : ١٩ .

٢ – اليقين بمدلولها يقينًا جازمًا لاشك **فيه** ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ الحجرات : ١٥ . ويقول النبى ﷺ : (أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة) .

٣ – القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه . قال تعالى عن المكذبين بها : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الصافات : ٣٥ .

٤ – الانقياد لما دلت عليه كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ لقمان : ٢٢ . ومعنى يسلم وجهه أى ينقاد ، والعروة الوثقى هى كلمة التوحيد .

٥ – الصدق : أى يقولها صادقًا من قلبه بحيث يواطئ قلبه لسانه . يقول النبى ﷺ : (ما من أحديشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله صدقًا من قلبه ، إلا حرمه الله على النار) .

٦ – الإخلاص . يقول النبى ﷺ : (أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه ونفسه) .

٧ – المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها ، وبغض ما ناقض ذلك قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة : ١٦٥ .

٨ – العمل بموجبها . أى أن يكون العبد مطيعًا لمن وحَّده فيما أمر ونهى فلا يجده الله إلا حيث أمره ، ولا يفتقده إلا حيث نهاه قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ الكهف : ١٠٧ . وقال : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف : ١١٠ .

وقد قيل للحسن البصرى إن إناساً يقولون : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة . فقال : من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة .

أنواع التوحيد :

١ – **توحيد الألوهية** : وهو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادة ، كالمحبة ، والخوف والرجاء والتوكل والدعاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة .

٢ – **توحيد الربوبية** : وهو الاعتقاد بأن الله هو المتفرد

بالخلق والرزق ، والتدبير وهذا النوع قد أقر به المشركون كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ الزخرف : ٨٧ .

٣ – **توحيد الأسماء والصفات** : وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه فى كتابه أو سنة نبيه محمد ﷺ على الوجه اللائق بعظمته وجلاله .

ويجب الإيمان أيضا بأن الكلام عن الصفات مرتبط بالكلام عن الذات والكلام عن الصفات كالكلام عن بعضها . فليست هناك صفة قابلة للتأويل وأخرى غير قابلة .

والقرآن الكريم يعرض فى كثير من آياته لتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات لأن معركة الإسلام مع المشركين كانت حوله . حيث آمن المشركون – كما سبق – بأن الذى خلقهم ورزقهم ودبر أمرهم ، وأرسل الرياح ، ويملك سمعهم وبصرهم ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى . كل ذلك الفاعل له هو الله سبحانه وتعالى .

ولهذا ركز القرآن على توحيد الألوهية خاصة . لأنهم أشركوا فى العبادة والدعاء مع الله .

يقول الله عز وجل : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ النمل : ٥٩ – ٦٠ .

فالقرآن فى الوقت الذى يقيم الدلائل على وحدانية الله يربط بين توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية . ليدلل على مدى الارتباط الفعلى بين الربوبية والألوهية .

❋ ❋ ❋

قـــدرة الله

القدرة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق علمه وإرادته .

وهى من الصفات التى يقوم العقل بإثباتها مستقلاً عن النقل .

ذلك أن العقل يحيل أن يوجد هذا الكون مع اتساعه واتـساقه عن عاجز لا قدرة له أو عن قدير ناقص القدرة ، بـل إن قدرتـه سبحانه لا نهاية لحدها .

وقد عاب القرآن على من انتقص من قدرة الله سبحانه مثل اليهود الذين قالوا بأن الله سبحانه قد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع فقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ق : ٣٨ .

فالله سبحانه لا يوجد فى كونه شئ إلا وهو خالقه حيث قال : (الله خالق كل شئ) وما من شئ فى الملك إلا وهو قادر عليه كما قال : (إن الله على كل شئ قدير) ، وقال (وكان ربك قديرا) .

وقدرته على الخلق مستمرة حيث إنه سبحانه لم يخلق الخلق ثم تخلى عنهم كما كان يقول أرسطو بل إن خلقه مستمر للأشياء التى يظهرها على وفق تقديره سبحانه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ الحجر : ٨٦ . وقوله خلاَّق يفيد الاستمرارية فى الخلق .

وكل قوة فى هذا الكون إنما هى مستمدة من قوته سبحانه وتعالى ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وقدرة الله لا تماثلها قدرة المخلوقين ، ولهذا حينما اعترض المشركون على إسراء رسول الله من مكة إلى بيت المقدس رد الله عليهم بقوله : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ الإسراء : ١ .

فيجب أن ننزه قدرة الله عن أن تماثلها قدرة المخلوقين ، ولا أن تماثل قدرة المخلوقين قدرة الله .

ولما أخبر رسول الله ﷺ أن أحبار اليهود يقولون : إن الله يضع السماوات على أصبع والأراضين على أصبع تبسم رسول الله وقال : (وما قدروا الله حق قدره) .

ومن دلائل قدرته أنه خلق السماوات ورفعها بلا عمد ، وخلق الأرض ودحاها ثم هو سبحانه يمسك السماوات أن تقع على الأرض ، ومن مظاهر هذه القدرة حفظ السماوات والأرض من الزوال ، كما قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ فاطر : ٤١ .

ويقول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ

بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ النور : ٤٣ : ٤٥ .

ويخالف المسلمون اليهود فى تصورهم لقدرة الله – كما مر – وأيضا النصارى الذى ادعوا أن يسوع المسيح هو الذى خلق بتوكيل من الآب وهم يقولون . إن اليد التى ربطت فى الصليب هى التى خلقت آدم .

كما أن يسوع هو الذى سيحاسب البشر .

وهناك أيضا المجوس الذين زعموا أن هناك إله يخلق الشرور بخلاف إله الخير الذى يتولى خلق الأمور الخيره .

كما توجد بعض الفرق الذين يقولون بأن الإنسان خالق أفعاله ، ومن يقول بأن الله لا يقدر على فعل الشر – مثل المعاصى – ظناً منهم أنهم بذلك ينزهون الله سبحانه عن الظلم .

ومن المعلوم أنه لا تعارض بين إرادة الإنسان للشر وبين قول الله : (الله خالق كل شئ) فالله سبحانه قد جرت عادته بأن يخلق الشئ عقب إرادة الإنسان . فالإنسان يريد والله يُقدر الإنسان على الفعل .

صفة الإرادة الإلهية

وهىٰ صفة قديمة قائمة بذاته تعالى بها يخصص الممكنات ببعض مايجوز عليها من الأمور المتقابلة مثل أن يكون الشئ على هيئة دون غيرها ، كأن يكون طويلاً أو قصيرًا ، حسنا أو قبيحا . فى هذا الزمان دون غيره ، فى هذا المكان دون غيره .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ يس : ٨٢ .

وقال سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ القصص : ٦٨ .

وقالٰ تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ آل عمران : ٢٦ .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الشورى ٤٩ : ٥٠ .

وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ النساء : ٢٦ : ٢٧ .

فدور الإرادة الإلهية أنها ترجح الاحتمالات التـــى ســيوجد عليهـــا المخلوق من بين سائر الاحتمالات التى يتصور أن يوجد عيه مـــن الأمور المتقابلة التى هى كما قال الشاعر :

الممكنـــــات المتقــــابلات ∴ وجودنا والعــدم والــصفات

أزمنــــة أمكنــــة جهـــــات ∴ كذا المقـــادير روى الثقـــات

وعمل الإرادة فى الممكنات فقط .

لأنها لو تعلقت بالواجب لترجيح وجوده فهو تحصيل حاصل لأنه موجود بالفعل ، أو لتعدمه وهو قلـــب للحقيقـــة لأن الواجـــب لا يتصور عدمه ولو تعلقت بالمستحيل لترجيخ وجوده فهـــذا قلـــب للحقيقة لأن المستحيل لا يتصور وجوده ، أو لترجيح عدمـــه فهـــذا تحصيل حاصل لأنه معدوم .

وإرادة الله شاملة :

بمعنى أن الله عز وجل مريد للخير والشر معًا ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة . فلا يكون فى ملك الله إلا مايريد الله . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ الأنبياء : ٣٥ . وقال : ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾ الفتح : ١١ . **لكن مع ملاحظة ما يأتى :**

١) – الإرادة نوعان :

أ – **إرادة كونية** : وهى تعنى المشيئة الشاملة لكل المخلوقات كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ يونس : ٩٩ ، وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ البقرة : ٢٥٣ ، وقوله : (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**) .

ب – **إرادة شرعية** : وهى المتضمنة لكل مايحبه الله ويرضاه كما قال : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ البقرة : ١٨٥ ، وقوله : ﴿ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ النساء : ٢٧ .

٢) – **ليس هناك شر مطلق لا خير فيه بوجه** . لأن وجوده حينئذ سيكون عبثا والله منزه عن العبث . وربما يكون هذا هو المراد بقول النبى ﷺ : (والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك) . أى أن الشر الكلى ليس إلى الله ولم يوجده الله ، فكل شر مخلوق فهو إضافي ونسبي قد خلقه الله لحكمة .

فهو بالنسبة لعقولنا القاصرة شر ، ولكن قد يكون منه خير كثير فالله سبحانه له نظره شاملة لكونه تختلف عن نظرتنا .

فربما هدمت الأمطار منازل فهى شر بالنسبة لصاحبها ، لكن الله أحيا به موات .

٣) – **أن الشر الجزئى لا يجوز لنا من باب الأدب أن ننسبه لله سبحانه** ، بل يمكن إضافته إلى العبد كما قال ابراهيم الخليل :

(وإذا مرضت فهو يشفين) أو إلى الشيطان الذى هو الوسيلة الكبرى للشرور . كما قال أيوب : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ص : ٤١ . أو نحذف الفاعل ونبنى الفعل للمجهول كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ الجن : ١٠ .

أو ندخله فى عموم المخلوقات كقوله : الله خالق كل شئ ، ولا نقول الله خالق القردة ، أو سبحان خالق الشرور .

٤) – **هناك فرق بين الإرادة والأمر** . فالإرادة قد تكون كونية تشمل الأمر وزيادة ، وقد تكون شرعية لا تعنى سوى الأمر.

فقد يريد الله شيئا ويأمر به كإيمان أبى بكر .

وقد يريد الله شيئا ولا يأمر به ككفر أبى لهب .

وقد يأمر بالشئ ولا يريده كإيمان أبى لهب .

وقد لا يأمر بشئ ولا يريده مثل كفر أبى بكر .

٥) – هناك فرق بين الإرادة والرضا . فالرضا معناه قبول الشئ واستحسانه ومحبته ، وعلى هذا :

** فقد يريد الله شيئا ويرضى به كإيمان المؤمنين وتوبة التائبين .

** وقد يريد الله الشئ ولا يرضى به مثل الذنوب التى تقع

من المؤمنين فهى بإرادته ومع ذلك لا يرضاها .

فالله لا يحب المعتدين ولا الظالمين ولا كل كفار أثيم ، ولا الجهر بالسوء . ومع ذلك يقع كل ذلك بإرادته .

والمعتزلة قد قالوا بأن الله لا يريد إلا الخير وأن الشر ليس واقعًا بإرادة الله سبحانه وتعالى . وقد خلطوا بين الأمر والإرادة . وكذا خلطوا بين الرضا والإرادة . وهو خطأ كما أسلفنا .

* وقد حكى أن القاضى عبد الجبار المعتزلى دخل على الصاحب بن عباد ومعه أبو اسحاق الاسفرايينى وهو أحد علماء السنة . فقال عبد الجبار : سبحان من تنزه عن الفحشاء . فقال الأستاذ سبحان من لا يجرى فى ملكه إلا مايشاء . فقال القاضى : أفيريد ربنا أن يعصى ؟ فقال الأستاذ : أفيعصى ربنا كرها ؟ فقال القاضى : أرأيت إن منعنى الهدى وحكم علىّ بالردى أحسن إلىَّ أم أساء ؟ فقال الأستاذ : إن منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن منعك ماهو له فالله يختص برحمته من يشاء .

* وقد حكى أن أحد المعتزلة تناظر مع مجوسى . فقال له المعتزلى : لم لا تسلم ؟ قال : لأن الله لم يرد إسلامى ، ولو أراد إسلامى لأسلمت . فقال المعتزلى : الله يريد إسلامك ولكن الشياطين لا يتركونك . فقال المجوسى : فأنا أكون مع الشريك الأغلب .

ولا شك أن هذه المناظرة مغالطة من الطرفين كما هو ظاهر .

صفة العلم الإلهى

صفة ثبوتية قديمة قائمة بذاته تعالى يكون بها انكشاف كل معلوم انكشافاً تاماً دون سبق جهل أو طروء نسيان .

وقد قال الله تعالى : (إن الله بكل شئ عليم) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ يونس : ٦١ .

ويقول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ المجادلة : ٧ .

وعلم الله سبحانه ليس إجبارًا بل هو انكشاف وإحاطة ، فما ثبت فى اللوح المحفوظ وما قدره الله سيكون وفق علمه ولكن دون إكراه لأحد على فعل شئ .

وقد أتى بقوم يسرقون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب . فسألهم فقالوا : أتحاسبنا على أمر قد قدره الله علينا . فأمر بقطع أيديهم وضربهم أربعين سوطا . وقال أما القطع فللسرقة . وأما الجلد فللكذب على الله سمعت رسول الله ﷺ يقول : (مثل علم الله فيكم مثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم) .

معنى ذلك أن علم الله الأزلي علم إحاطة وانكشاف . وهو قديم كما قال الرسول لوفد اليمن حين سألوه عن أول هذا الأمر . قال : (كان الله ولم يكن شيئ قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شئ) .

وعلم الله يشمل الواجبات والممكنات والمستحيلات :

فهو سبحانه وتعالى يعلم ذاته وصفاته ويعلم حقائق الذات والصفات والأفعال .

وهو يعلم الممكنات وهى المخلوقات الموجودة وغير الموجودة على جهة التفصيل والإجمال .

وهو يعلم المستحيلات : وهى مالا يتصور وجودها لو وجدت كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ الأنعام : ٢٨ . فهو يعلم أنهم لا يردون إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ، ولكن أخبر أنهم لو عادوا إلى الدنيا لكفروا .

وقال أيضا : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأنفال : ٢٣ .

فالله يعلم ماكان ، وما يكون ، ومالا يكون لو كان كيف يكون.

ولا يتغير علم الله بتغير المعلوم .

فهو سبحانه يعلم أن زيداً سيموت ، ثم يموت زيد فيعلم

سبحانه أنه مات ، والعلم واحد والتغير فى المتعلقات . ذلك أن الكل إليه سواء لأنه سبحانه فوق الزمان والمكان لأنه خالقهما .

العلم الإلهى والسنة المطهرة :

يقول النبى ﷺ : (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ماكانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى) ويقول في حديثه عن موسى عليه السلام والخضر : (وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ، ثم نقر فى البحر ، فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل مانقص هذا العصفور من البحر) .

وعلم الله يشمل الكليات والجزئيات ، وليس كما يقول الفلاسفة أنه لا يعلم الأشياء إلا بعلم كلى ، فهو سبحانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

والعلم صفة كمال وضدها وهو الجهل صفة نقص والبارى سبحانه منزه عن كل النقائص .

❋ ❋ ❋

الحيـــاة

وهى صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، تصحح اتصافه بالعلم والإرادة والسمع والبصر والقدرة . . إلخ .

فلو لم يكن حيا لكان سبحانه لما ثبت له صفة من هذه الصفات التى هى كمال ، وحياته سبحانه تخالف حياة المخلوقين ، لأنها :

أولاً : صفة ذاتية فيه بخلاف البشر إذ حياتهم سبقها عدم كما قال تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ البقرة : ٢٨ .

وثانيًا : لأن حياته سبحانه لا يلحقها عدم ولا يقضى عليها بالفناء بخلاف حياة البشر كما قال الله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝ ﴾ الرحمن : ٢٦ : ٢٧ .

قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ الفرقان : ٥٨ وقال : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ طه : ١١١ ، وقال : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ غافر : ٦٥ .

وكان من دعاء النبى ﷺ : (وأنت حى قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم) وقوله : (وأنت الحى الذى لا يموت والإنس والجن يموتون) .

صفتا السمع والبصر

وهما صفتان قائمتان بذاته تعالى يختلفان عن العلم . فالله سبحانه يسمع كل شئ مسموع ، وإن دق بل إنه يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء فى الليلة الظلماء ، وهو سبحانه لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تختلط عليه الأصوات ولا تلتبس عليه اللغات واللهجات .

وحين قال موسى له يارب أخاف من فرعون أن يطغى علينا ، قال الله له ﴿ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ طه : ٤٦ ، وحين اشتكت إحدى النساء زوجها لرسول الله وجعلت تجادل النبى ﷺ : قال الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ المجادلة : ١ .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : (أربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصم ، ولا غائبًا ، إنكم تدعون سمعيًا قريبًا) .

وروى البخارى عن رسول الله ﷺ قوله : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

وقد أجمعت الأمة على اتصافه سبحانه بصفتى السمع والبصر

يامن يرى مد البعوض جناحه ∴ فى ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى نياط عروقها فى نحرها ∴ والمخ فى تلك العظام النحل

ويرى ويسمع مايرى مادونها ∴ فى قاع بحرٍ زاخر متجندل

أما عن كيفية السمع هل بأذن وصماخ ، وهل يرى بحدقة فهذا كله من باب المحاولات لمعرفة كيفية الصفات ، ونحن لم نكلف بمعرفة هذا وهو فوق طاقة وقدرة العقل البشرى ، فما يجب معرفته هو أن الله يسمع كل شيئ ويرى كل شئ .

❋ ❋ ❋

صفة الكلام

وهى صفة قديمة قائمة بذاته تعالى بها يكون اخباره تعالى عما يريده من خلقه ، وقد أخبر سبحانه عن نفسه أنه يكلم مخلوقات قال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت : ١١ .

وقال للملائكة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة : ٣٠ .

وقال : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ النساء : ١٦٤ .

وقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ الأعراف : ١٤٣.

وصفة الكلام مما ثار حولها جدل وخلاف استنفذ طاقات الأمة كثيراً وانقسم المسلمون حولها هل الكلام قديم أم حادث ، وبالتالى هل القرآن مخلوق أم قديم . الأمر الذى أخرج لنا طوائف المتكلمين وأخرج لنا علم الكلام الذى تعتبر الاختلاف حول كلام الله من أهم وأبرز قضاياه .

وقد حدثت فتنة كادت تعصف بالمجتمع الإسلامى زمن الإمام أحمد بن حنبل عرفت بفتنة خلق القرآن وضرب بسببها الأمام أحمد وسجن هو ومن وافقه فى رأيه .

وكان يكفى المسلمين الإيمان بأن الكلام الإلهى صفة من

صفات البارى سبحانه التى أثبتها لنفسه ولا نحاول البحث عن حقيقتها لأنها كغيرها من الصفات الإلهية التى لايمكن للعقل البشرى الوصول إلى العلم بحقيقتها وكيفيتها .

❋ ❋ ❋

القسم الثانى : صفات نقلية (خبرية)

وهى الصفات التى كان النقل هو العمدة فى إثباتها فلو لم يرد فى شأنها نص من كتاب أو سنة صحيحة لا يستطيع العقل المجرد إثباتها . وهى كثيرة منها الرحمة والغضب والتعجب والرضا ، والفرح ، والاستواء والنزول ، والمجيئ يوم القيامة ، وأنه سبحانه له يد ، وعين ، . . . إلخ .

وهذه الصفات أثبتها السلف على مايليق بذاته المقدسة ، ولم يفرقوا بينها وبين صفات المعانى فكما لله علم لا يماثل علم المخلوقين ، وسمع لا يشبه سمع المخلوقين . فكذلك له استواء لا نعرف كيفيته ، ولا يشبه استواء المخلوقين ، ويد لا تشبه أيادى المخلوقين .

المهم أن السمع قد ورد فيه هذه الصفات ، والله أعلم بذاته ورسول الله أعلم البشر بالله وبصفاته .

والخلف قد وقفوا من هذه الصفات الخبرية موقف التأويل لها فالصفات المتعلقة بمشيئته كالفرح والرضا والغضب والسخط والرحمة كلها إرجعوها إلى صفة الإرادة ، وصفة اليد ردوها إلى القدرة ، والعين إلى العلم .. والمجيئ مجيئ أمره ، والنزول نزول ملك ، والاستواء على العرش بالاستيلاء عليه .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذه التأويلات الصادرة عن الخلف – مع خطئها – لا تؤدى بصاحبها إلى الكفر وذلك لسببين .

الأول : أنه لم ينف الصفة نفيًا ، وإنما أثبتها ثم أولها فهو مخطئ فى التأويل ، لكنه لا يكفر لأنه يؤمن بالصفة فى الجملة .

الثانى : أنه أولَّ بقصد التنزيه ظناً منه أنه لا يتم التنزيه إلا بالتأويل . وقد قال ابن تيمية إن حقيقة الكفر خراب القلب ، والمؤول بقصد التنزيه بعيد من هذا المعنى إن شاء الله .

وأرى أن خطأ المؤول لهذه الصفات إنما جاء من كونه قاس الغائب على الشاهد فى مسألة الصفات الخبرية ، ومن هنا حاول تأويلها .

فالخلف نظروا إلى تنزيه البارى فقط فأوّلوا ، والسلف نظروا إلى تنزيه كلام البارى فأثبتوا ونظروا إلى تنزيه البارى فنفوا الكيفية حتى لا يقعوا فيما وقع فيه المشبهة .

النصوص الواردة فى الصفات الخبرية :

١ – **فى صفة العلو** : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ، ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ ، وقول النبى : (ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء) .

٢ – **فى صفة الاستواء على العرش** . قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ طه : ٥ ، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الأعراف : ٥٤ .

وقول النبى : (إن الله قضى الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش . إن رحمتى سبقت غضبى) .

٣ – **صفة الرحمة** . قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ الفرقان : ٥٩ . وقال ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الأحزاب : ٤٣ .وقال ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ الرحمن : ١ ، ٢ . وقال (أولئك سيرحمهم الله) . وقول النبى ﷺ : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) .

٤ – **صفة المجيئ يوم القيامة** . قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ الفجر : ٢٢ ، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ . البقرة : ٢١٠ .

٥ – **صفة المحبة** . قال تعالى ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ البقرة : ١٩٥ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ البقرة : ٢٢٢ ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ آل عمران : ٣١ ، ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ المائدة : ٥٤ ، ويقول النبى (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) ، ويقول (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه) ويقول أيضا (اللهم أنك عفو تحب العفو فاعفو عنى) .

٦ – **صفة الرضا** . قال تعالى : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ ، وقال : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ الفتح : ١٨ .

ومن دعائه ﷺ : (اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك) وقال أيضا : (رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما) .

٧ – **صفة الغضب** . قال تعالى : ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة : ٦١ ، ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ المائدة : ٦٠ ، وقال : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ النساء : ٩٣ . ويقول النبى ﷺ : (من لم يسأل الله يغضب) .

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس
القضاء والقدر

** القضاء والقدر فى الكتاب والسنة .

** القدر ودعوى التواكل .

** فوائد الإيمان بالقدر .

** مراتب الإيمان بالقدر .

** مراحل كتابة المقادير .

** الاحتجاج بالقدر .

** الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية .

القضاء والقدر

إن معضلة القضاء والقدر من المسائل التى بحثتها البشرية منذ نشأتها والتى بحثها أهل كل دين ، وأصحاب الفلسفات فى كل عصر والتى لم يصلوا فيها إلى نتيجة يطمئن إليها الجميع ، ولكنهم دومًا يختلفون ويتنازعون حولها .

وقد أصاب أهل الإسلام ما أصاب أهل الديانات الأخرى حيث تنازعوا فى القدر حتى وصل التنازع إلى أسماع النبى ﷺ فبين لهم أن إشكاليةَ القدر عويصة وأن المسلم أمامه مهمات جسام وأنه لا يجب أن يلج فى مسائل تستنفذ طاقاته دون طائل ، وأن الذى أهلك الأمم قبلهم هو تنازعهم فى القدر ، ثم عزم عليهم ألا يتنازعوا فيه .

ومع ذلك فإن العقل الإنسانى المسلم ومع ورود آيات وأحاديث تتحدث عن القدر ، ويوهم ظاهرها التعارض ، ثم إن المسألة مطروحة من جانب كثير من المسلمين ، فلا يمكن والحالة هذه إغفالها بل لابد من محاولة الإجابة على ما يثار حول المسألة . لكن مع التقيد قدر الطاقة بما ورد فى الكتاب والسنة حول هذا الموضوع .

ولعل تحذير النبى ﷺ ، ومن بعده على بن أبى طالب من الدخول فى هذه المسائل المعتاصة هو إشارة إلى صعوبتها ووعورتها فلابد من التسلح بأسلحة الوحى الماضية وقت التباحث حولها . وهو ما سنفعله بحول الله وقوته .

القضاء والقدر فى الكتاب والسنة

❑ **أولاً : القضاء فى القرآن الكريم :**

وردت مادة القضاء فى القرآن الكريم أكثر من ستين مرة . تدور حول عدة معان منها :

١ – **الإرادة** : مثل قوله تعالى : ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧ ﴾ آل عمران : ٤٧ .

٢ – **الإعلام** : مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الإسراء : ٤ .

٣ – **الحكم** : مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ يونس : ٤٧ .

٤ – **الخلق** : مثل قوله تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فصلت : ١٢ .

٥ – **الأمر** : مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الإسراء : ٢٣ .

٦ – **الانتهاء من الشيئ** : مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ البقرة : ٢٠٠ .

٧ – **الاتمام والإكمال** : مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ القصص : ٢٩ .

٨ – **الموت** : كما فى قوله تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ القصص : ١٥ .

٩ – **التقدير** : كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ مريم : ٢١ .

❐ ثانيًا : القدر فى القرآن الكريم :

وردت مادة القدر فى القرآن الكريم أكثر من ١٣٠ موضعًا كلها تدور حول عدة معان :

١ – **بمعنى الشرف والعظمة** : كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ الأنعام : ٩١ .

٢ – **بمعنى التضييق** : كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴾ الفجر : ١٦ .

٣ – **بمعنى العلم** : كما فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الحجر : ٦٠ .

٤ – **بمعنى القوة والقدرة** : كما فى قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المرسلات : ٢٣ .

٥ – **بمعنى الحكمة** : كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ القمر : ٤٩ .

٦ – **بمعنى الكتابه فى اللوح المحفوظ** : كما فى قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ الواقعة : ٦٠ .

٧ – **الموعد المحدد** : كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ طه : ٤٠ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (كل شيئ بقدر حتى العجز والكيس) . والعجز : الضعف . والكيس : النشاط .

وفى الصحيح عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتب أربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله وعلمه ، وشقى أو سعيد . فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) .

وفى وصية الرسول لابن عباس رضى الله عنهما . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيئ لم ينفعوك إلا بشيئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف .

وأما معناهما فى الاصطلاح :

فالقضاء هو : إيجاد الله للأشياء على وجه الإحكام والإتقان .

والقدر هو : علمه أزلاً وتقديره بما تكون عليه المخلوقات فيما لا يزال .

فالقضاء أخص من القدر لأن دائرة القدر أعم وأشمل ، إذ القدر علم وتدبير والقضاء إيجاد .

فتدبير الأوليات قدر ، وسوق تلك الأقدار بمقاديرها وهيئاتها إلى مقتضياتها هو القضاء .

معنى ذلك أن القدر أسبق من القضاء ، ولهذا فإن الطبيعى أن يقال القدر والقضاء .

حكم الإيمان بالقضاء والقدر :

الإيمان بالقضاء والقدر واجب كما أسلفنا لأنه الركن السادس من أركان الإيمان .

وفى القرآن إشارة إلى القضاء والقدر وكتابته فى اللوح

المحفوظ ، ووجود كل ماقدر الله وجوده فى عالم الكمون إلى أن يبرز فى عالم الظهور فى الوقت المحدد له على الوجه الذى خصصته الإرادة الإلهية . قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ يس : ١٢ ، وقال : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ الواقعة ٧٧ ، ٧٨ ، وقال : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ التوبة : ٥١ ، وقال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ الحديد : ٢٢ .

وفى السنة النبوية :

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له أكتب ؟ قال : وما أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيئ حتى تقوم الساعة ، ثم قال النبى : من مات على غير ذلك فليس منى .

❋ ❋ ❋

القدر ودعوى التواكل

والإيمان بالقضاء والقدر ، وأن كل شيئ مكتوب منذ الأزل ، لايمنع العمل ولا يوجب الاتكال بل هو حافز على الجد والاجتهاد والحرص على العمل الصالح ، ولهذا لما أخبر النبى ﷺ أصحابه بسبق المقادير وجريانها ، وجفوف القلم بها ، فقيل له : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : لا . اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۞ ﴾ الليل : ٥ : ١٠ .

فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير وهيأ لها أسبابا وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب فى المعاش ، والمعاد فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادًا فى فعلها والقيام بها ، وأعظم منه فى أسباب معاشه ومصالح دنياه من كون الحرث سببًا فى وجود الزرع ، والنكاح سببًا فى وجود النسل وكذلك العمل الصالح سبب فى وجود الجنة ، والعمل السيئ سبب فى دخول النار . وقد قال الرسول ﷺ : إحرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيئ فلا تقل : لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل .

❋ ❋ ❋

فوائد الإيمان بالقضاء والقدر

لابد للإنسان من الإيمان بالقضاء والقدر وذلك لأنه :

١ – أحد أركان الإيمان الستة التى أخبر بها رسول الله ﷺ حيث قال : (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره) .

٢ – لأنه من تمام توحيد الربوبية لأنه إيمان بأنه ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ، ولا يجرى فى ملكه إلا مايريد .

٣ – لأن به تحقيق التوكل على الله ، وتفويض الأمر إليه مع القيام بالأسباب الصحيحة النافعة .

٤ – به الاطمئنان فى حياة الإنسان حيث يعلم أن ما أصابه لم يكن يخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

٥ – أن بالإيمان بالقضاء ينتفى الاعجاب بالنفس عند حصول المراد ، ولا يقول الإنسان ما قاله قارون : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ القصص : ٧٨ . بل يؤمن العبد بأن العمل الذى حصل به مراده ليس إلا مجرد سبب يسره الله له .

٦ – بالإيمان بالقدر يزول القلق والضجر عند فوات المراد ، أو حصول المكروه . لأنه يعلم أن الأمر كله لله فيرضى ويسلم ، وإلى هذين الأمرين يشير قوله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحديد : ٢٢ ، ٢٣ .

مراتب الإيمان بالقدر

وللإيمان بالقدر مراتب أربع كما يقول علماء السلف :

المرتبة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى قد علم بعلمه الأزلى الأبدى ما كان وما يكون من صغير أو كبير ، وظاهر وباطن مما يكون من أفعاله أو أفعال مخلوقاته .

المرتبة الثانية : الإيمان بأن الله تعالى كتب فى اللوح المحفوظ مقادير كل شيئ فما من شيئ كان أو يكون إلا وهو مكتوب ومقدر قبل أن يكون . قال تعالى مشيراً إلى هاتين المرتبتين :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ الحج : ٧٠ .

وقال : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأنعام : ٥٩ .

ويقول النبى ﷺ : (كان الله ولم يكن شيئ قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيئ) .

المرتبة الثالثة : الإيمان بمشيئة الله وأنها عامة فى كل شئ ، فما وجد موجود ولا عدم معدوم من صغير وكبير ، وظاهر وباطن

فى السماوات والأرض إلا بمشيئة الله سواء كان من فعله تعالى أو من أفعال العباد .

المرتبة الرابعة : الإيمان بخلق الله تعالى لكل شيئ صغيرا وكبيرًا ، وأن خلقه شامل لما وجد فى كونه وما فعله العباد اختيارًا لأنه سبحانه خالق الإنسان . والإنسان أصل لأفعاله ، وخالق الأصل خالق لفروعه .

ودليل هاتين المرتبتين قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الزمر : ٦٢ ، ٦٣

وقال أيضا : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝ ﴾ الفرقان : ٢

وقال : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ الصافات : ٩٦ .

فالله لم يخلق شيئا إلا بمشيئته لأنه لا مكره له .

قال تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝ ﴾ ابراهيم : ٢٧ .

❋ ❋ ❋

مراحل كتابة مقادير الإنسان

والإيمان بكتابة المقادير يدخل فيه خمسة مقادير :

الأول : التقدير الأزلى قبل خلق السماوات والأرض . فقد قال سبحانه : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ التوبة : ٥١ ، وقال : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ الحديد : ٢٢ ، ٢٣ .

وفى الحديث (كان الله ولم يكن شيئ معه ، وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيئ ، وخلق السماوات والأرض) ، وفى الحديث : (كتب الله مقادير الخلائق بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء) ، وفى الحديث : (أول ما خلق الله القلم فقال له : أكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيئ حتى تقوم الساعة) .

الثانى : كتابة الميثاق ونحن فى عالم الذر . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ الأعراف : ١٧٢ .

وفى الحديث : (أن الله مسح على ظهر آدم فخرج منه ذرية فقال هؤلاء أهل الجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، وهؤلاء أهل

النار وبعمل أهل النار يعملون) .

إذًا عند خلق آدم كان تقدير ثان ولا تنافر بين التقديرين .

الثالث : التقدير العمرى . عندما يكون الإنسان فى بطن أمه عندما يكتب الأجل والعمل والشقاوة والسعادة والرزق وجميع ماهو لاق لا يزاد ولا ينقص .

فقد روى أن رسول الله ﷺ قال : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات تكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) .

الرابع : التقدير السنوى . وذلك فى ليلة القدر حيث يقدر فيها كل مايكون فى السنة كما قال الحق سبحانه : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ الدخان ٤ ، ٥ .

ففى هذه الليلة يقضى الله كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها من العام القادم ، يقول ابن عباس : (يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر

مايكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال : يحج فلان ويحج فلان) . وقال ابن عمر فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها .

الخامس : التقدير اليومى . وهو سوق المقادير إلى المواقيت التى قدرت لها فيما سبق . كما قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ الرحمن : ٢٩ . حيث يحى ويميت ، ويشفى ويمرض ، ويعز ويذل ، ويرفع ويخفض . وهذا التقدير اليومى يكون بمثابة تأويل المقدور على الإنسان ، وإنقاذه فيه .

وعلى هذا فالتقدير اليومى تفصيل من التقدير السنوى ، والتقدير السنوى تفصيل من تقدير عالم الذر ، وهو تفصيل من التقدير الأزلى الذى خطه القلم فى الإمام المبين الذى هو اللوح المحفوظ . والذى هو من علم الله سبحانه وتعالى الذى إليه المنتهى سبحانه .

❁ ❁ ❁

الاحتجاج بالقدر

والاحتجاج بالقدر نوعان :

النوع الأول : احتجاج مشروع وهو الذى يكون بعد الفعل وبعد التوبة من الوقوع فيه ، وهو جائز لأن الأثر المترتب على ذلك قد زال بالتوبة فانمحى به توجه اللوم على المخالفة . ويكون الهدف منه ليس إلقاء التبعات على القدر بقدر ماهو اعتذار وبيان (أن الله خالق كل شيئ) ، وأنه بيده سبحانه مقاليذ الأمور ، مثل ماحدث من آدم عليه السلام .

فقد قال رسول الله ﷺ احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما فحج آدم موسى . قال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك فى جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض . فقال آدم . أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيئ ، وقربك نجيا . فبكم وجدت الله تعالى كتب التوراة قبل أن يخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال : فهل وجدت فيها ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ قال : نعم . قال : افتلو منى على أن عملت عملاً كتب الله علىَّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ قال رسول الله فحج آدم موسى) وهذا النوع من الاحتجاج هو ما أشار إليه النبى ﷺ فى قوله : (وإن أصابك شيئ فلا تقل لو

أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل) ، وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ التوبة : ٥١ .

النوع الثانى : احتجاج ممنوع . وهو الذى يحاول التخلص به من تبعاتَ الفعل وإسناده إلى الله دون توبة أو ندم عليه ، أو فى حال ترك الواجب .

وهذا ماحدث من أبليس حيث عصى ربه فى عدم السجود لآدم ، ومع ذلك لم يستغفر الله على عصيانه ، ثم ظل وراء آدم عليه السلام يعده ويمنّيه ويقسم له ويدله بغرور حتى أكل آدم من الشجرة . وبعد هذا كله يطلب من الله الإمهال لا ليتوب ويكفر عما اقترفه ، ولكن ليغوى ابن آدم .

ثم يلقى تبعات ذلك على قدر الله فيقول : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الحجر : ٣٩ .

ومن هذا النوع أيضا ماكان يحتج به المشركون فى عصر النبوة كما حكى القرآن قولهم : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام : ١٤٨ ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ الزخرف : ٢٠.

فاحتجاج المشركين على شركهم بمشيئة الله إنما قصدوا به دفع اللوم عنهم ، وإقامة العذر على استمرارهم على الشرك .

وإلا فإن شركهم واقع بإرادة الله ومشيئته الكونية بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ الأنعام : ١٠٧ . لهذا فإن الله أ بطل احتجاجهم ولم يبطل أن شركهم واقع بمشيئته .

واحتج الكافرون أيضا بالقدر حين قالوا : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ يس : ٤٧ . وقد سأل عمر أحد اللصوص عن سر السرقة فقال قدر الله عليَّ أن أسرق فقال عمر وقدَّر الله عليَّ أن أقطع يدك ثم زاده أربعين جلدة للكذب على الله .

ومن الدلائل على أن الاحتجاج بالقدر أثناء وقبل المخالفة باطل ولا يجوز :

١ – أن تارك الواجب ، وفاعل المحرم يقدم على ذلك باختياره لا يشعر أن أحدًا أكرهه ، ولا يعلم أن ذلك مقدر لأن القدر سر مكتوم ، فلا يعلم أحد أن شيئا قدره الله إلا بعد وقوعه . فكيف يصح أن يحتج بحجة لا يعلمها قبل إقدامه على ماعتذر بها عنه .

ولماذا لم يقدر أن الله كتبه من أهل السعادة فيعمل بعملهم .

٢ – أن إقحام النفس فى مآثم ترك الواجب وفعل المحرم ظلم لها وعدوان عليها . كما قال الله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ هود : ١٠١ . ولو أن أحدًا ظلم المحتج بالقدر لأقام الدنيا

ورفع قضايا ضده . ولو قال له : ظلمى إياك إنما هو بقدر الله لم يقبل منه ذلك . فكيف يظلم نفسه ويحتج بالقدر .

٣ – إن هذا المحتج لو خير بين الإقامة فى بلد بها أوبئة وطاعون وبين بلد آمن مستقر لاختار الثانى وهو الأفضل له فى دنياه فكيف يحتج على مابه ضرر فى أخراه .

❋ ❋ ❋

الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية

من المسائل التى حيرت العقول وتعددت بسببها المذاهب وتباينت فيها الآراء ، بل إنها من أهم أسباب نشأة الفرق الإسلامية هى العلاقة بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية ، وهل هناك فعل للإنسان حقيقة أم لا . وبمعنى أوسع هل الإنسان مسير أم مخير ؟ وإذا كان مسيرًا فما فائدة التكليف ؟ وهل المسير يعاقب على فعله ؟ وإذا كان مخيرًا وهو الفاعل حقيقة لكل مايصدر عنه ألا يتعارض هذا مع كون الله خالق كل شيئ ؟

مضطرب فسيح من الآراء ومعترك واسع يحار فيه العقل ، **ومع ذلك يمكن أن نحصر هذه الآراء فى ثلاثة اتجاهات :**

١ – **الاتجاه الجبرى** : الذى يزعم أن الإنسان مجبور فى أفعاله ، لا إرادة له ولا اختيار ، وأنه كريشة معلقة فى الهواء تحركها الرياح كيف تشاء ، وكالهاوى من أعلى إلى أسفل ، وسلبوا العبد قدرته واختياره .

واستندوا إلى بعض الآيات والأحاديث النبوية التى فهموا منها – خطأ – أنها تؤيد اتجاههم الجبرى خالطين بين الإرادة الشرعية والكونية ، وبين الإرادة والمحبة والمشيئة والرضا . من هذه الآيات :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الإنسان : ٣٠ ،

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات : ٩٦ ، ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الأنعام : ٣٩ ، ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ النساء : ٧٨ .

ومن الأحاديث قول النبى : (إن الله خلق أناسا للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، وأناسًا للنار وبعمل أهل النار يعملون) ، وقوله عن الإنسان فى بطن أمه (ويكتب أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد) .

وقد بتروا الآيات والأحاديث من سياقها حتى يؤيد مدعاهم ، مما كان له خطره على الفكر والمجتمع الإسلامى . وفوق ذلك خطره على العقيدة .

وخطورة هذا الاتجاه تكمن فيما يلى :

١ – إسقاط الأخذ بالأسباب والضرب فى الأرض والعمل والاجتهاد ، وهؤلاء كانوا ومازالوا سببًا رئيسًا فى تأخر الأمة عن ركب الحضارة .

٢ – الاحتجاج بالقدر على معاصيهم وقبائحهم . وقد كان إبليس أول من احتج بالقدر فقال : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ الحجر : ٣٩ . ولم يعترف بالذنب كما اعترف به آدم عليه السلام .

٣ – التمادى فى الذنب ، وعدم الإقلاع عنه ، وذلك لاعتقادهم

– خطأ – أن ذلك بقدر الله وقضائه . ولهذا قال المشركون : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام : ١٤٨ .

٤ – إن اللوازم الناتجة عن هذا المذهب خطيرة عقديًا واجتماعيًا . ذلك أن التكليف على فرض صحة هذا الاتجاه يكون كتكليف الحيوانات البهيمة بالطيران ، وتكليف المقعد بالمشى ، وأن تعذيب الله للعصاه هو تعذيب لهم على فعله لا أفعالهم ، وأن ذلك يكون كتعذيب الطويل لماذا لم يكن قصيرًا .

٥ – فى ذلك إخراج لأفعال الله عن أن تكون حكيمة ، ونفى لحكمة الله البالغة وجحود لحجته الدامغة ، وإثبات للعباد الحجة على الله ، ونسبته للظلم بل على هذا المذهب يكون لإبليس وهامان وفرعون وسائر العصاة العذر .

٦ – قد ذكر ابن القيم رحمه الله كثيرًا من عباراتهم التى تنبئ إما عن جهل مطبق أو عن كفر صريح فمن قولهم :

ألقاه فى اليم مكتوفًا وقال ∴ إياك إياك أن تبتل بالماء

وقد اجتمع بعض هؤلاء فتذاكروا القدر فجرى ذكر الهدهد وقوله : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ النمل : ٢٤ . فقال أحدهم كان الهدهد قدريا أضاف العمل إليهم والتزيين للشيطان ، وجميع ذلك فعل الله .

وسئل بعضهم عن قول الله لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ص : ٧٥ . أيمنعه ثم يسأله مامنعه ؟ قال : نعم قضى عليه فى السر ما منعه فى العلانية ولعنه الله .

وقال أحدهم : وقد عوتب على إرتكابه معاصى . فقال إن كنت عاصيًا لأمره فأنا مطيع لإرادته . بل وصل بأحد الحبريين الجرأة حين مرَّ بسارق مقطوع اليد . فقال : مسكين مظلوم أجبره على السرقة ، ثم قطع يده .

وقيل لبعضهم : أترى الله كلف عباده مالا يطيقون ثم يعذبهم عليه . قال : والله قد فعل ذلك ، ولكن لا نجسر أن نتكلم .

ويروى صاحب كتاب معارج القبول أن أحد الجبرية رأى رجلاً يفجر بامرأته فبادر ليأخذه فهرب . فأقبل يضرب امرأته وهى تقول : القضاء والقدر فقال : ياعدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هذا ؟ فقالت : أوه تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس . فتنبه ورمى بالسوط من يده واعتذر لها وقال : لولاك لضللت .

وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أم كانت رمزا لما يصل إليه تفكير الجبرى ، لكن الحقيقة أن الأمة لم تصب طوال تاريخها بمثل الجبرية وتفكيرها .

٢ - **الاتجاه القدرى** : وأصحابه القدرية النفاة الذين قالوا

بالحرية الإنسانية وبالغوا حتى أدَّاهم إلى القول بأن العباد هم الخالقين لأفعالهم .

وأول من أحدث هذا القول معبد الجهنى فى آخر عصر الصحابة . وهذا الاتجاه والذى سبقه على طرفى نقيض .

فالاتجاه الجبرى يضيف الفعل والانفعال إلى الله سبحانه وتعالى ، والاتجاه القدرى يضيف الفعل والانفعال إلى الإنسان وأصحاب هذا الاتجاه القدرى هم المعتزلة ومن وافقهم .

ثم توارث القدرية هذا المذهب وتواصوا به ، ثم منهم من نفى علم الله ، ومنهم من قال كل أفعال العباد ليست مقدورة لله ولا مخلوقة له خيرها وشرها . ومنهم من قال الخير من أفعال البشر مخلوق لله مقدور له . أما الشر فليس عندهم مخلوقًا لله ولا مقدورًا له .

ولاشك أن هذا المذهب رغم اعترافنا بخطأ ماذهب إليه إلا أنه أخذ من الهجوم والقدح والذم والشتم أكثر مما يستحق . فنرى من يقول إنهم أشر من المجوس ، وأنهم مجوس هذه الأمة .

وكما أن الجبرية قد استندوا إلى ظواهر بعض النصوص فكذلك القدرية قد استندوا إلى بعض الآيات والأحاديث من هذه الآيات :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف : ٢٩ . وقوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ الزلزلة : ٧ ، ٨ ، وقوله : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ النحل : ٣٢ ، وقوله : ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ السجدة : ١٧ ، وقوله : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾ البقرة : ٨١ .

فالقدرية يرون بعد الاستدلال بهذه الآيات أن الإنسان إذا لم يكن له قدرة على الفعل والترك لكان تكليفه بالشرع عبثا .

ومن الأخطار التى يؤدى إليها القول بهذا الاتجاه :

١ – القول بأكثر من خالق حيث الإنسان خالق لأفعاله والله خالق لما عداه وهذه خطورة عقدية .

٢ – إعطاء مساحة من الحرية للإنسان وللعقل البشرى أكبر من حجمه ، وهذا أدى بهم إلى القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، وقولهم بوجوب الصلاح والأصلح على الله .

٣ – أدى بهم هذا القول إلى أن ذهبوا إلى أن الله يجب عليه ثواب المطيع وعقاب العاصى .

٣ – **الاتجاه الوسط** : وهذا الاتجاه هو اتجاه أهل السنة والجماعة الذين قالوا بالحرية الإنسانية مع الاعتقاد بأن الله خالق

كل شئ . فللعباد قدرة على الفعل ولهم مشيئة والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم وأقوالهم وأعمالهم .

وهو تعالى منحهم إياها وأقدرهم عليها وجعلها قائمة بهم مضافة إليهم حقيقة وبحسبها كلفهم ، وعليها يثابون ويعاقبون ، ولم يكلفهم الله إلا وسعهم ولم يحملهم إلا طاقاتهم . وقد أثبت الله تعالى ذلك فى الكتاب فقال : ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الإنسان : ٣٠ ، وقال : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝ ﴾ الأعراف : ١٧٨ ، وقال : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ﴾ التكوير : ٢٨ ، ٢٩ ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ [1] ﴾ الزخرف : ٧٢ ، وقال : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ السجدة : ١٤ .

فكما لم يوجد العباد أنفسهم لم يوجدوا أفعالهم .

وقبل أن ننهى الكلام عن مشكلة الإرادة الإنسانية يلزم أن نضع النقاط الآتية :

---

(١) لا تعارض بين هذه الآية وقول الرسول (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . .) لأن الباء فى الآية للسببية ، والباء فى الحديث للجزاء . فمهما عمل الإنسان من طاعات فلن تساوى فى الجزاء دخول الجنة الذى هو بمحض فضل الله عز وجل .

أولاً : لا خالق لما فى الكون غير الله عز وجل . فالكون وما فيه من خير أو شر مخلوق لله ، فالله خالق كل شيئ ، فالإنسان وفعله وسائر الأكوان خلق الله عز وجل .

ثانيًا : لا يحدث فى الوجود شيئ إلا وهو مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ومعلوم لله عز وجل منذ الأزل .

ثالثًا : لا تعارض بين كون الفعل مكتوب فى اللوح المحفوظ وبين القول بحرية الإنسان فى أفعاله .

رابعًا : لا تعارض بين كون الإنسان حرًا فى أفعاله ، وبين أن الله خالق الفعل . فالله سبحانه أجرى عادته بأن يوجد الفعل الإنسانى المخلوق لله عقب إرادة الإنسان له . فالإنسان حر والله خالق والله يعطى تيسيرات من جنس النية كما قال تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ الفتح : ١٨ ، وقال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصف : ٥ .

خامسًا : إن الله عز وجل لن يحاسب الإنسان على ماهو مكتوب فى اللوح المحفوظ بل سيحاسبه على مافعله من خير أو شر فقد قال سبحانه : ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل : ٣٢ ، وقال عن أهل النار : ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ ﴾ ، ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ﴾ الإسراء : ١٣ .

سادسًا : إذا أضيف إلى الله الهداية والضلال . فهذا لا يعنى أن الله قد أجبر كلا الفريقين . بل إن الله أقدر أهل الضلال على ضلالهم وأقدر أهل الهداية على هدايتهم . وإلا فإن الله (لا يهدى من يضل) ولا يهدى القوم الظالمين ولا الفاسقين .

فمن اختار الهدى أعانه الله على الهداية ، ومن استحب العمى على الهدى أقدره الله على ما أختاره والأعمال بالنيات .

سابعًا : أن الأفعال التى يجبر الإنسان عليها لن يحاسبه الله عليها وكذا ما وقعت منه خطأ ، وأما ما كانت باختياره وإرادته فهى محل المحاسبة من الله . قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الأحزاب : ٥ .

وقال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ النحل : ١٠٦ . فمن لم يقدر على إعمال الحج لن يحاسب عليه بخلاف من استطاع إليه سبيلا ثم تركه .

ثامنًا : قبائح الإنسان كالمعاصى والذنوب يجب إسنادها إلى الفاعل المباشر لها وهو الإنسان . ولا يجب إضافتها لله . فيقال للعبد السارق الزانى ، كما يقال له المؤمن المطيع المصلى مع كون هذه الأفعال مقدورة لله والله هو الذى أقدر العبد عليها .

تاسعًا : لا شيئ يحول بين الإنسان وبين أن يضمر شيئاً فى

نفسه من خير أو شر . ولكن هذه الحرية كامنة فى الضمير . والله – كما قلنا – أجرى العادة بأن يوجد الفعل عقب الهم بالفعل . ولكن فى بعض الأحيان قد يصطدم بالواقع فلا يقع الفعل . إذ يحول الله بين النية ووقوع الفعل كما قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ الأنفال : ٢٤ ، فربما يريد العدو الكيد للإسلام والمسلمين ، فيحول الله بينه وبين حدوث ذلك . مع اعتبار أن الله سوف يجازيه على ما أراد . وكذلك ربما يريد العبد الجهاد . ولكنه لا يستطيع فيكتب له ثواب ذلك كما أخبر النبى ﷺ حين قال : (إن بالمدينة رجالاً ماهبطنا واديًا ولا صعدنا إلا كانوا معنا، حبسهم العذر) .

عاشرًا : إن حرية الإنسان كانت بمشيئة الله ومراده ، وما يجرى من حرية الإنسان لا يجرى إكراهًا للخالق ولا للمخلوق .

ولقد رفض الله أن يكره الناس على الإيمان وكان هذا فى إمكانه ، ولكنه أراد للإنسان أن يكون حرًا مختاراً يختار الإيمان أو الكفر كما يشاء ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف : ٢٩ ، ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ البقرة : ٢٥٦ ، حتى لا يكون سبحانه ظالمًا حين يعذب من اختار الغى على الرشاد .

حادى عشر : الهداية نوعان .

أ – هداية دلالة وهى للناس جميعًا حتى لايكون لهم حجة . وهى التى بين الله للبشرية فيها عن طريق الرسل طريق الخير من الشر . قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ فصلت : ١٧ . أى دللناهم فاستحبوا العمى على الهدى .

ب – هداية معونة .. وهى لمن أطاع كما قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ محمد : ١٧ ، وقال : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ التوبة : ١٢٥ ، وقال : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ البقرة : ١٠ .

ثانى عشر : جميع الآيات التى تتحدث عن أن الله بيده الهداية والضلال . لايمكن فهمها على أساس جبر الإنسان على الهدى أو الضلال . بل نفهمها فى ضوء ماورد من آيات تشير إلى الحرية الإنسانية فى قبول الإيمان أو الكفر . حيث لا إكراه فى الدين .

فالحق يقول : ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ الأنعام : ٣٩ ، وهو ذاته القائل : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف : ٢٩ .

فمشيئة الله السابقة اقتضت أن يكون الإنسان مختارًا فى إيمانه

أو كفره وإلا فالله فى إمكانه أن يخلق الكل مؤمنا كما قال : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ يونس : ٩٩ ، ولو فعل ذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب ، ولا ينقص من مشيئة البارى سبحانه أن يكون العبد له مشيئة لعدة أسباب :

الأول : أن الله هو خالق الإنسان ومشيئته .

الثانى : أن العبد لا يستطيع إنفاذ مشيئته إلا بأقدار الله له .

الثالث : أن مشيئة العبد دليل على كمال مشيئة الله لأنه سبحانه أراد أن يكون للعبد حرية ومشيئة .

ثالث عشر : نختم هذه الملاحظات بما قاله الإمام جعفر الصادق رضوان الله عليه : " إن الله أراد بنا شيئًا وأراد منا شيئًا . فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا) .

❋ ❋ ❋

الفصل السادس
الملائكـــة

** أصل خلقتهم .

** وظائف الملائكة .

** عصمة الملائكة .

** المفاضلة بين الملائكة والبشر .

الملائكة

أجسام نورانية عاقلة تظهر فى صور مختلفة وتقوى على أفعال شاقة ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثه هم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

أصل خلقة الملائكة :

والملائكة قد خلقت من نور كما روى ذلك عن رسول الله ﷺ حيث قال : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم) .

ولايدل ذلك على أنهم الآن من نوع النور الذى نراه وإلا رأيناهم بل إنهم الآن أنوار تختلف عن النور المادى . بدليل أننا لا نراهم كالماديات ، ولا نرى آثارهم كالنور الحسى ، مع أنهم معنا يلازموننا فى كافة أمور حياتنا ، يحفظوننا ويكتبون أعمالنا ويتعاقبون فينا بالليل والنهار .

وقد كان جبريل ينزل على رسول الله وهو بين أهله وصحابته ولا يرونه بأبصارهم ، وهذا دليل على أن نورانيتهم تفوق الأنوار المادية التى لا ترى ذاتها إلا بآثارها أو بالأجهزة الحساسة .

فقد توصل العلم الحديث إلى أن هناك من الأنوار والإشعاعات المادية ما لايمكن للبصر العادى التعرف عليها من خلال آثارها ، ولكن أمكن ذلك بواسطة أجهزة حساسة . وذلك مثل الأشعة

الحرارية ، أو تحت الحمراء ، أو فوق البنفسجية .

وإذا كنا لا نرى الملائكة – مع أنهم مخلوقون من نور – لا بآثارها شأن الأنوار المادية ولا بالأنوار الحسية شأن الماديات ، ولا بالأجهزة الحساسة شأن الإشعاعات فما ذلك إلا لأن أنوارهم أرقى من هذه الأنوار والإشعاعات المادية .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا سبيل إلى رؤيتهم ومعرفة أحوالهم إلا بالإيمان شأنهم شأن سائر الغيبيات . فقد كان رسول الله ﷺ يراهم وآحاد الصحابة يرونهم .

وقد قال حارثة لرسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى تبرها وترابها فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ، وأهل النار فى النار يعذبون . فقال الرسول : عرفت فالزم .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لحنظلة الأسيدى رضى الله عنه والذى نفسى بيده إنكم لو تدومون على ماتكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى الطرقات وعلى فرشكم .

فأصل الخلقة من النور ، ولكنهم ليسوا الأن على هيئة النور الحسى ، كما أن أصل خلقة البشر من الطين ، ولكنهم الآن على خصائص تخالف ماعليه الطين .

والملائكة لا يتنـــاكحون ، ولا يتوالــدون ، ولا يـــأكلون ولا يشربون ، ولا ينامون ، ولا يوصفون بذكورة ولا بأنوثـــة ، وهـــم يموتون ، ويتأذون من الروائح الكريهة .

وحكم الإيمان بهم واجب لأنه أحد أركان الإيمان الأساسية ، فقد قال الله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ البقرة : ٢٨٥ .

وقال رسول الله ﷺ : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته . . .)

فيجب على المؤمن أن يؤمن بأن الله تعالى قد خلق خلقًا علويًا يطلق عليهم ملائكة لهم وظائف ومهام قد كلفهم الله بها ، على رأس هؤلاء الملائكة جبريل عليه السلام وميكائيل . وأن من ينكر الملائكة أو جبريل أو ميكائيل يعد كافراً .

قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ البقرة : ٩٨ .

والملائكة يتفاوتون فى الأقدار كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ الصافات : ١٦٤ : ١٦٦ .

ومن مظاهر تفاوتهم كثرة أجنحتهم فمنهم من له جناحان ،

ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له ستمائة جناح مثل جبريل عليه السلام ، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ . قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ فاطر : ١ .

وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله ، وتنفيذ أوامره فهم مجبولون على الانقياد التام لله سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ النحل : ٥٠ ، وقال : ﴿ بَلْ عِبَادٞ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأنبياء : ٢٦ : ٢٧ ، وقال : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ التحريم : ٦ . والأنبياء يتصرفون فى العالمين العلوى والسفلى بأمر الله حيث يدبر الله بهم السماء والأرض وهم لا يفعلون شيئا من تلقاء أنفسهم .

وظائف الملائكة :

للملائكة وظائف مختلفة وأعمال شتى كلها امتثال لأوامر الحق سبحانه من هذه الوظائف :

** **حمل العرش** . قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ غافر : ٧ .

** **حمل أمانة الوحى** . والمختص بذلك جبريل عليه السلام

قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الشعراء : ١٩٣ : ١٩٤ .

** **نفخ الروح** : وذلك لقول النبى ﷺ : (يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك . ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح . .) الحديث .

** **قبض الأرواح** . والمختص بذلك ملك الموت [1] : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ السجدة : ١١ . وقال تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الأنعام : ٦١ .

** **بشارة المؤمن عند قبض روحه** . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ فصلت : ٣٠ .

** **تثبيت المؤمنين فى المعارك** . قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الأنفال : ١٢ .

** **كتابة أعمال العباد** . قال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ق : ١٨ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ

---

(١) فى التوراة يسمى ملك الموت : عزرائيل . ولا اعتراض على ذلك لأنه لم يرد فى القرآن والسنة مايعارض ذلك .

﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الانفطار : ١٠ – ١٢ .

** حفظ العبد . قال تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ الرعد : ١١ . أى بأمر من الله .

** **حضور مجالس الذكر** . قال رسول الله ﷺ : (إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ، فإذا وجدوا مجالس الذكر قالوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم) .

** **تأمينهم مع المصلين** . قال رسول الله ﷺ : (إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا : آمين . فإن الملائكة يقولون : آمين) .

** **صلاتهم على المؤمنين** . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الأحزاب : ٤٣ .

** **التسليم على أهل الجنة** . ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرعد : ٢٣ ، ٢٤

** تعذيب الكافرين . قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ التحريم : ٦ ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ﴾ المدثر : ٣١

** حراسة الجنة والنار . فمالك خازن النار ، ورضوان خازن الجنة .

** **النفخ فى الصور** . والموكل به إسرافيل . قال ﷺ :

(كيف أضحك وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وانتظر متى يؤمر له) .

هذه أهم وظائف الملائكة التى يقومون بها فى الدنيا وفى الآخرة عدا ما يقومون به من التسبيح والتهليل والتكبير والركوع والسجود . قال رسول الله ﷺ : (أطت السماء وحق لها أن تئط ، مافى موضع قدم فيها إلا وملك راكع أو ساجد لله) .

عصمة الملائكة :

الملائكة مبرأون عن الشهوات ، مجبولون على الطاعات ، مفطورون على التسبيح لرب البريات ، لا يعصون الله ما أمرهم . ويفعلون ما يؤمرون . وقد اعتقد بعض العلماء أنهم غير معصومين مستدلين على عدم عصمتهم بما ورد فى القرآن .

١ – أن أبليس مع كونه من الملائكة لم يستمع لكلام الله فى أمره بالسجود لآدم قال تعالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ الحجر : ٣٠ ، ٣١ .

فالأمر بالسجود كان للملائكة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ ﴾ وإباء إبليس وامتناعه مع كونه من الملائكة دليل على عدم العصمة .

والجواب على ذلك : أن إبليس ليس من الملائكة ، بدليل قول الله عنه : (إنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ، وأما أنه شمله

الأمر فلأنه كان معهم وقت الأمر بالسجود .

وقد قال رسول الله ﷺ : (خلقت الملائكة من النور ، وخلق إبليس من النار ، وخلق آدم مما وصف لكم) .

٢ – قول الملائكة فى جوابهم للحق سبحانه : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة : ٣٠ . مايشير إلى عدم عصمتهم لأنهم **أولاً** : اعترضوا علىٰ فعل الله سبحانه بقولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا) . **ثانياً** : اغتابوا آدم وذريته فى قولهم (مَن يُفْسِدُ فِيهَا) **ثالثًا** : زكوا أنفسهم فى قولهم : (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) . والاعتراض والغيبة للغير وتزكية النفس أمور محرمة كلها

والجواب : ليس فى هذا مايشير إلى الاعتراض أو الغيبة أو التزكية بل الغرض من كلام الملائكة السؤال عن الحكمة فى استخلاف من يتصف بتلك الصفات مع وجود الملائكة . ثم إن الغيبة تكون حين يكون الغرض إظهار عيوب الغير عند من لا يعلم ، والتزكية تكون حين يكون الغرض إظهار مناقب النفس عند من لا يعلمها ولا يتصور ذلك عند علام الغيوب سبحانه وتعالى .

٣ – قصة هاروت وماروت وأنهما مع كونهما ملكين قد

ارتكبا الفواحش والمحرمات من شرب الخمر ، والزنا ، والقتل حتى عاقبهما الله سبحانه فى الدنيا وجعلهما كوكبين .

والرد على ذلك : بأن هذه من الإسرائيليات التى لا يصدقها عقل وأقرب إلى المعقول أن القراءة (وما أنزل على الملكين – بالكسر) . أو أنهما ملكين نزلا يعلمان الناس السحر حتى يفرق الناس بين المعجزة والسحر . وهما مع ذلك يقولان للناس لا تكفروا إنما نحن فتنة .

المفاضلة بين الملائكة والبشر :

قد صرح القرآن الكريم بأن المفاضلة بين الأنبياء جائز. فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ البقرة : ٢٥٣ وقد بان لنا أن رسول الله ﷺ أفضل الأنبياء والرسل . كما جاز أيضا المفاضلة بين الملائكة وظهر أن جبريل عليه السلام أفضل الملائكة .

أما مسألة المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر خاصة الأنبياء والرسل فهى التى ثار حولها الخلاف . مع العلم بأنها ليست من أصول العقائد .

إذ توقف بعض العلماء عن المفاضلة بين الملائكة والرسل وعلى رأس هؤلاء العلماء الإمام أبو حنيفة النعمان .

♦ **ومن العلماء من فضَّل الملائكة على الرسل وهم المعتزلة**

ولهم أدلة على ذلك منها :

١ – قول الله تعالى : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ الأعراف : ٢٠ .

٢ – قول الله حكاية عن النبوة : ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف : ٣١ .

٣ – قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ الأنعام : ٥٠ .

٤ – قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ النساء : ١٧٢ .

٥ – قوله ﷺ : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) ومن المعلوم أن الملائكة أقوى من البشر .

٦ – قوله ﷺ : يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه) .

٧ – قوله ﷺ : (فنظرت إلى جبريل كأنه حلس لاطئ ، فعرفت فضل علمه بالله تعالى علىَّ) .

♦ ومن العلماء من ذهب إلى تفضيل الأنبياء على الملائكة ،

وقد بالغ بعضهم إلى حد إساءة الأدب بقولهم : إن الملائكة خدَّام البشر !! يعنون الملائكة الموكلين بحفظ ابن آدم . وهذا نوع من الجهل والعصبية للجنس البشرى ، وأهل السنة جميعًا يحفظون للملائكة أقدارهم ولا يسيئون الأدب بهم وإن خالفوا المعتزلة فى ذلك حيث مال أغلبهم إلى تفضيل الأنبياء والمرسلين على الملائكة .

وقد حاولوا نقض أدلة المعتزلة بالقول بأن :

الدليل الأول : كان نوعًا من الوسوسة من إبليس حيث دلاَّهما بغرور .

وأما الدليل الثانى : فإن النسوة قلن ذلك بناءً على أنه مركوز فى النفس أن الملائكة خلق جميل عظيم .

وأما الدليل الثالث : فلأن الكفار لما قالوا (مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) ، أمر الله رسوله أن يقول لهم : إنى بشر مثلكم أحتاج إلى مايحتاج إليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب ولست من الملائكة الذين لا يحتاجون إلى ذلك .

وأما الدليل الرابع : فقد قالوا لا نزاع فى فضل قوة المَلك وقدرته وعظم خلقه ، وفى العبودية خضوع وذل . وعيسى عليه السلام لا يستنكف عنها ولا من هو أقدر منه وأقوى .

وأما الدليل الخامس : فالمقصود المؤمن من البشر فلا تدخل الملائكة .

وأما الدليل السادس : فليس المراد الخيرية المطلقة بل خير منه للمذكور .

وأما الدليل السابع : فقد قالوا إن فى سنده مقال .

ثم لأهل السنة عدة أدلة منها :

١ – أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، والحكيم لا يأمر بسجود الأعلى للأدنى ، وامتناع إبليس عن السجود دليل على أنه سجود إكرام وتفضيل بدليل قوله : ﴿ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ الأسراء : ٦٢ .

٢ – قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ البقرة : ٣١ .

٣ – قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ آل عمران : ٣٣ .

٤ – قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ البينة : ٧ .

٥ – قوله تعالى فى حديثه القدسى : (لا أجعل صالح ذرية

من خلقته بيدى كمن قلت له كن فكان) .

٦ - أن الملائكة لهم عقول ولا شهوة لهم ، والأنبياء لهم عقول وشهوة ، فلما نهوا أنفسهم عن الهوى كانوا بذلك أفضل .

ولاشك أن هذه المسألة من المسائل التى لا نفع يرجى من البحث فيها خاصة وأنه لم يخض فيها أحد من الصحابة ولولا أن الفريقين قد استند كل منهما إلى بعض الآيات والأحاديث لما ذكرتها .

ومع العلم بأن عقيدتى الخاصة تؤيد أفضلية الرسل على الملائكة خاصة وأن رسول الله ﷺ قد وصل ليلة الإسراء والمعراج إلى درجة لم يصل إليها نبى مرسل أو ملك مقرب .

أقول رغم أنى أميل إلى أفضلية صالحى البشر على الملائكة إلا أنه يمكن الرد أيضا على ما استدل به أهل السنة .

ففى الدليل الثانى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ليس فيه مايشير إلى الأفضلية خاصة وأن الخضر عليه السلام قد علم كليم الله موسى ، ولم يدل ذلك على أنه أفضل منه . ثم أن رسول الله ﷺ قد علَّمه جبريل . كما قال الحق سبحانه : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾ النجم : ٥ .

وأما الدليل الثالث . فمنقوض بقول الحق سبحانه عن بنى

إسرائيل : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الدخان : ٣٢ . فالمقصود عالم زمانهم من الإنس .

وأما الدليل الرابع . فيمكن الرد بأن الملائكة أيضا يدخلون فى الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أو يكون البرية هنا نسبة إلى البرى وهو التراب .

وإن من أقوى ما نعتمد عليه فى الاستدلال هو أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، وموقف الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وقول الله : لا أجعل صالح ذرية من خلقته بيدى كمن قلت له كن فكان . مع الإشارة بأن هذه المسألة ليست أصيلة فى باب العقائد .

❋ ❋ ❋

الفصل السابع

الجن والشياطين

** الكلام على الجن وأصل خلقتهم .

** قرين الإنسان من الجن .

** تكليف الجن .

** الجن وسيدنا سليمان .

** الشيطان .

** هل يدخل الشيطان بدن الإنسان .

** الحكمة من خلق الشيطان .

** حكم منكرى الجن .

الجن والشياطين

إن لفظ الجن مأخوذ من الاستتار . ومنه (الجنة) لاستتار أرضها ومن فيها بالأشجار . ومنه (الجُنّه) لكونها ساترة للإنسان ومنه (الجِن) لاستتارهم عن العيون . ومنه (الجنون) لاستتار العقل ، ومنه (الجنين) لاستتاره فى بطن أمه ، ومنه قوله تعالى : (اتخذوا أيمانهم جُنة) لأن المنافقين استتروا وراء أيمانهم ، والصيام جُنة ، لأنه وقاية وساتر للإنسان عن الشهوات .

والجن : أجسام نارية قادرة على التشكل بأشكال حسنة وقبيحة ويقدرون على أفعال عجيبة .

والطريق إلى معرفة الجن هو الوحى . ذلك أن الجن هو ضمن الغيبيات التى لا سبيل للحواس إليها فقد قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ الأعراف : ٢٧ . أما العقل فهو فى مجال الغيب تابع للوحى والنقل فى هذا ودور العقل التصديق بوجود ماصح عن الوحى وعدم إحالته .

أصل خلقتهم : وعن المادة التى خلق منها الجن أخبرنا الوحى بأنها النار . حيث قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ الرحمن : ١٥ . وقال : ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ الحجر : ٢٧ . والسموم هو لهب النار الخالص الذى لا دخان فيه .

ويقول النبى ﷺ : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم) .

والجن مخلوق قبل آدم وذريته ، يؤخذ هذا من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝ ﴾ الحجر : ٢٦ – ٢٧ .

واضطراد ذكر الجن قبل الإنس فى كثير من آيات القرآن الكريم مثل : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ الأنعام : ١٣٠.

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ الأعراف : ٣٨ .

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ النمل : ١٧ .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ ﴾ الذاريات : ٥٦ .

﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾ هود : ١١٩ .

ولا يأتى ذكر الإنس قبل الجن فى القرآن الكريم إلا للتدليل على قوة الإنس الأغوائية والجنسية والبيانية .

ففى الغواية فإن الإنس أقوى من الجن فى الشيطنة والكذب

كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ الأنعام : ١٢٢ .

وقوله : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝ ﴾ الجن : ٥ .

وفى **القوة الجنسية** فإنه يبدو أن الإنس أقوى من الجن كما قال تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝ ﴾ الرحمن : ٧٤ .

وأما فى القوة البيانية والبلاغية فيقول الله سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝ ﴾ الإسراء : ٨٨ .

وأيضا قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ مايشير إلى أسبقية الجن على الإنس فى الخلق عند من قال إن الملائكة قالوا ذلك عن طريق المقايسة بين آدم وذريته ، وبين من سبق منهم هذه الأفعال وهم الجن .

❋ ❋ ❋

قرين الإنسان من الجن

قد صح أن كل واحد من بنى آدم له قرين يلازمه من يوم ميلاده إلى أن يموت . روى مسلم أن الرسول ﷺ قال : مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخس الشيطان إلا ابن مريم وأمه . ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ آل عمران : ٣٦ .

ويتسلط هذا القرين على صاحبه محاولاً إفساده . يقول النبى ﷺ : (ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن . قالوا وإياك يارسول الله ؟ قال : وإياى إلا أن الله قد أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير) .

ولا يعنى ذلك أن القرين قد أشهر إسلامه . بل إنه قد يأس من إغواء رسول الله لأن الله كان يسلِّم النبى من إغوائه . لأن هذا القرين من جنس الشياطين والشيطان هو المتمرد من الجن . ففى رواية مسلم أيضا أن الرسول قال للسيدة عائشة(أو قد حضرك شيطانك) .

وفى النصوص السابقة مايشير إلى زيادة عدد الشياطين على عدد ابن آدم مما يدل على أن الجن أكثر بكثير من بنى آدم .

❋ ❋ ❋

تكليف الجن

والجن مكلفون مثلهم مثل الإنسان كما تشير الآيات القرآنية مثل قوله تعالى على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝ ﴾ الجن : ١٤ .

وقول الله عز وجل : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ الأنعام : ١٣٠

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝ ﴾ الرحمن : ٣١ . والثقلان هما الجن والإنس .

معنى ذلك أنهم مثل الإنس فى إيمانهم وكفرهم وصلاحهم وعصيانهم . كما قال الجن عن نفسه .

وقوله : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝ ﴾ الجن : ٧٢ .

وقوله : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ الأحقاف : ٣١ .

لكن هل هناك رسل من الجن ؟ الراجح عدم وجود رسل من الجن وهو مايمكن أن نأخذه من قول الله عز وجل .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝ ﴾ الجن : ١ ، ٢

ومن قوله تعالى على لسان وفد الجن حين عادوا إلى قومهم :
﴿ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ الأحقاف : ٣٠ .

فقولهم : أنزل من بعد موسى يشير إلى أنهم كانوا على اليهودية .

وقولهم : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ. يشير إلى أنهم صاروا من المسلمين .

بل إن منهم من كانوا أحسن حالاً فى استقبال كلام الله عز وجل . كما روى ذلك عن رسول الله حين قرأ سورة الرحمن فقال (إن الجن كانوا أحسن منكم ما قرأت (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلا قالوا ولا بشيئ من ذلك نكذب ياربنا فلك الحمد) .

وقد كان لرسول الله ﷺ لقاء مع الجن ويحتكمون إليه فى منازعاتهم .

❋ ❋ ❋

الجن وسيدنا سليمان

ذكر القرآن الكريم أن الله سخر الجن لسيدنا سليمان فقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ سبأ : ١٢ ، ١٣ .

وقوله ﴿ وَمَن يَزِغْ ﴾ دليل على أن التسخير كان يشمل العاصى والطائع كما قال : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ ص : ٣٧ – ٣٩ .

وطلب سليمان من جلسائه أن يأتى أحد منهم بعرش بلقيس بعدما أخبره الهدهد بأنها وقومها يسجدون للشمس . فقال ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ النمل : ٣٨ ، ٣٩ .

وفى موت سليمان دليل قاطع على أن الجن لا يعلمون الغيب مثلهم مثل باقى المخلوقات . حيث ظلوا فى العذاب المهين ، وفى السخرة حتى بعد صعود روحه وجسمه مازال قائما مسنودًا على عصاه . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا

دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ سبأ : ١٤ .

وهذا التسخير للجن والطير والهواء كان ضمن المعجزات التى أعطاها الله لسليمان والتى طلب من الله أن لا تكون لأحد من بعده .

وفى كتب السنة يُروى عن رسول الله ﷺ قوله : (إن عفريتا من الجن تفلَّت البارحه ليقطع علىَّ صلاتى فأمكننى الله منه فأخذت بخناقه حتى وجدت برد لعابه على يديه فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه فذكرت دعوة أخى سليمان : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ص : ٣٥ فرددته خاسئا) .

❋ ❋ ❋

الشيطان

مأخوذ من الشطن . وهى المبالغة فى البعد والطرد . كما أن الرحمن مبالغة فى الرحمة . وقد ذكر لفظ الشيطان فى القرآن مايقرب من تسعين مرة .

والشيطان هو كل متمرد من الجن والإنس ، لكن إذا أطلق كان أصلاً على متمردى الجن ، ويطلق تبعًا على عاصى الإنس .

ورأس الشياطين إبليس وهو كبيرهم الذى علمهم الغواية ، وهو الذى ينشر الشياطين ليقوموا بإغواء ابن آدم ، وهو الذى حقد على آدم وذريته وأفصح عن هذا الحقد فعلاً حين أمر مع الملائكة بالسجود لآدم ، فاستكبر وأبى أن يسجد وقولاً حين قال : ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ الإسراء : ٦١ .

﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الإسراء : ٦٢ .

وادعى أنه وجنسه أفضل وأعظم من آدم وذريته حين قال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ الأعراف : ١٢ .

والله عز وجل قد طرده من رحمته حين امتنع عن السجود لآدم وعصى أمر الله فقال : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ

عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ ص : ٧٧ ، ٧٨ .

وأخبر الله آدم بعداوة إبليس له ، وأن إبليس قد عاداه منذ أمر بالسجود ، وحذر الله آدم من اتباع خطواته ووسوسته ، لكن إبليس ظل وراء آدم حتى عصى الله عز وجل بالغواية تارة وبالقسم تارة أخرى ، فكان أن خرج آدم من الجنة .

وبعد أن أغوى إبليس آدم سأل الله أن ينظره ويمهله إلى يوم القيامة حتى يتمكن من إغواء الذرية حيث قال : ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ص : ٧٩ : ٨٣ .

وقال الله لذرية آدم : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ الأعراف : ٢٧ .

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ فاطر : ٦ .

وإبليس له ذرية وأعوان وهم الشياطين الذين يتناسلون ويتوالدون مثل البشر . لكن طائفة منهم لا تموت إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ الكهف : ٥٠ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ الجن : ٦ . يدل على وجود رجال مما يشير إلى وجود نساء .

ومن المستبعد عقلاً ونقلاً أن يوجد تكاثر بين الجن والإنس لاختلاف الأصل والطبع ، وما ورد من أن بلقيس أحد أبويها من الجن فلا أصل له ولا دليل صحيح يدل على ذلك .

وقول الله عز وجل : ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾ الأنعام : ١٢٨ .

وليس في هذه الآية مايدل على التزاوج بينهما بل الآية تشير إلى أن الجن قد استكثروا من إغواء البشر ، وقال الأتباع من البشر ربنا استمتع بعضنا ببعض أى أن الجن استمتع بإغواء البشر فوجد اللذة في السيطرة عليهم ، واستمتع البشر من الجن فوجدوا اللذة في المعاصي .

وليس للشيطان من حجة قوية لإغواء ابن آدم وليس له سلطان

فى ذلك لأن الإنسان بيده أن يسد على الشيطان مسالك الغواية . لهذا يقول الشيطان يوم القيامة موقعًا اللوم على الأتباع : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ ابراهيم : ٢٢ .

معنى ذلك أن العاصى بمجرد الإشارة من الشيطان يكون على استعداد للمعصية . ومن هنا يتولاه الشيطان ويصده عن السبيل وعن الطاعة .

أما من يغلق أمامه أبواب الدخول فليس له سلطان عليه كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ ﴾ النحل : ٩٩ - ١٠٠ . فليس للإنسان إذًا حجة بعد تحذير الله له : ﴿ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ النور : ٢١ .

ثم إن الشيطان ليس لديه الحجة ولا السلطان القوى الذى به يملك على الإنسان ناصيته فيغويه ، وإنما مجرد دلائل ظنية لا تنطلى إلا على الغافلين : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ ﴾ سبأ : ٢٠ .

ونورانية المؤمن المخلص فيها مايكفى لإحراق الوساوس وعدم اقتراب الشياطين من شخص المؤمن ، ولعل هذا هو سر قول الرسول لعمر بن الخطاب : (إن الشيطان ليفرُّ منك ياعمر) ، (وما سلك عمر فجًا إلا سلك الشيطان فجًا غيره) .

وإذا حدث وأن ألمَّ بقلب المؤمن مسُ من وسوسة الشيطان فإنه سرعان ما يتذكر فيتصل القلب بالله .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف : ٢٠١ .

وقال أيضا : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ الأعراف : ٢٠٠ .

فالمؤمن لديه سلاحان : استنارة القلب التى تعد وقاية من اقتراب الشيطان ، واستعاذة اللسان بالله ، والتى تعد مطردة للشيطان

وعلى فرض أن الشيطان أوقع الإنسان فى حبائله حتى جعله يقع فى محظور ، فعلى الإنسان ألا ييأس بل عليه أن يوقظ فى قلبه نوازع الخير ويتوب إلى الله ، ويستغفر ويضع نصب عينه ماوقع من أبيه آدم ، وكيف أنه بعد أن وقع فى المحظور وأكل من الشجرة المنهى عنها ، وبعد أن بدت له سوءته هو وزوجه تنبه واستيقظ وقال :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف : ٢٣ . فتقبل الله منهم هذا الدعاء وغفر لهما وتاب عليهما .

كما قال : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه : ١٢١ - ١٢٢ .

وفى قصة آدم عبرة وعظة لأولى الألباب ، ومثل حى لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان خاصة ، وأنه عرضة للخير والشر والصواب والخطأ ، والتقوى والفجور . وليس معصومًا ولا ملائكيًا

والشيطان وحده ليس وسيلة الأغواء بل هناك النفس الضعيفة والهوى والمال والدنيا . وإن كان الشيطان يستغل كل هذه الوسائل فهو - لعنه الله - ينتهز فرصة ضعف النفس فيدخل محاولاً إفسادها وينتظر كثرة المال ليهجم على قلب ابن آدم وكذا السلطة والشهوة . . إلخ .

* * *

هل يدخل الشيطان بدن الإنسان

ذكر القرآن الكريم أن للشيطان مس لابن آدم حيث قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف : ٢٠١ .

لكن هذا المس عند المؤمن لايبقى بل يزول بمجرد الاستعانة بالله .

كما ذكر القرآن أن للشيطان همزات بابن آدم ونزغات ، حيث قال : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ المؤمنون : ٩٧ – ٩٨ . وقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ الأعراف : ٢٠٠ . وقال : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ الأسراء : ٥٣ .

وهذه النزغات والهمزات تزول بمجرد الاستعاذة بالله والاكثار من ذكر الله .

وذكر القرآن أيضا أن الشيطان قد يستحوذ بالكلية على ابن آدم خاصة أولئك الذين لا علاقة لهم بالله .

قال تعالى : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المجادلة : ١٩ .

وهؤلاء هم أحباؤه وأولياؤه كما قال : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾، آل عمران : ١٧٥ . وقال : ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ النساء : ٧٦ .

لكن الظاهر من هذه الآيات سواء التى تدل على الهمز والنزغ والمس والاستحواذ ، كل ذلك مظاهر لإغواء الشيطان وكيده لابن آدم ولا علاقة لها بالتلبس الذى يراد منه أن يتداخل الجن مع جسم الإنسان فيفعل بالإنسان مايريده ، وأحيانا يتكلم بلسانه ويقوم بأعمال تتنافى مع سلوك البشر السوى ، الذى قد يؤدى إلى الصرع والهياج .

الدليل على ذلك أن يوسف الصديق عليه السلام ذكر أن ماكان بينه وبين اخوته إنما كان نزغ فقال : ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ يوسف : ١٠٠ .

وهذا يشير إلى أن النزغ ليس من التلبس فى شيئ .

ثم أنه لو كان للشيطان ولاية على ابن آدم لتنافى ذلك مع حرية الإنسان فى أن يختار مايشاء .

وقد قال بعض العلماء بجواز تلبس الجان بابن آدم ، وأن كثيرًا من الناس قد حدث لهم هذا الأمر وهناك متخصصون فى إخراج الجن من الإنسان سواء بالقرآن أو خلافه .

واستندوا إلى ماروى أن رسول الله ﷺ عالج صبيًا من الصرع كأن به جنيى ، وقال بعد أن أمسك بمنخره أخرج ياعدو الله فإنى رسول الله . فخرج .

وحوادث أخرى مشابهة لها ، إضافة إلى ماذكر من الآيات التى تشير إلى النزغ والمس والاستحواذ ، وكذا قول الرسول ﷺ : (الشيطان يجرى من آدم مجرى الدم ، وأن الغضب تكون من الشيطان) .

ومن العلماء من منع ذلك وقالوا باستحالة حلول الجنى بالإنس وأن مايحدث مع كثير من الذين يقولون بذلك لا تعدوا أن تكون نوع من الأمراض النفسية التى قد تتأثر بقراءة القرآن عليها ، وتعود إلى حالتها الطبيعية .

ومن المعلوم أن القرآن فيه شفاء لما فى الصدور . كما قال تعالى.والنفس فى بعض الأحيان تحتاج إلى راحة ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن تتلى عليها آيات الرحمن فتعتدل وتعود إلى طبيعتها .

ولاشك أن هذا الموضوع قد اختلط فيه الحابل بالنابل ، وصار عرضه لتدخل الدجالين والمشعوذين وصرنا نسمع عن قاهر العفاريت الذى يعالج بأشياء منها القرآن الذى لا يعرف حتى قراءة آية صحيحة منه .

وأنا فى الوقت الذى أنادى فيه بضبط المسألة ، وعدم تركها

بهذه الصورة التى تؤدى إلى تشويه صورة الدين والمتدينين ، أهيب بأطباء النفس أن يضمّوا إلى وسائلهم العلاج القرآن الكريم الذى يعتبر علاجًا ناجعًا لكثير من الأمراض التى تصيب النفس الإنسانية فخالق الإنسان قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد : ٢٨ .

وقد أثبتت التجارب أن مجرد قراءة القرآن قراءة صحيحة تؤثر على دماغ الإنسان فتخرج أنزيمات خاصة تساعد على الهدوء والراحة .

❋ ❋ ❋

ماهى الحكمة من خلق الشياطين

من المعلوم أن الله حكيم فى أفعاله فلماذا خلق إبليس ليوسوس بالشر لابن آدم ؟ ويمكن الإجابة على ذلك :

** بأن الله لا يسأل عما يفعل فهو سبحانه يخلق مايشاء فى الوقت الذى يريد .

** وقد تكون الحكمة من خلق إبليس تشبه الحكمة من خلق العقارب والحيات . التى قد يظن أنه لا فائدة منها مع أنها ضمن التوازن الكونى . فكذلك قد يظن ظاهرًا أن لا حكم وراء خلق أبليس .

** وقد تكون الحكمة هى إظهار مقدرة الله فى خلق المتضادات والمتناقضات فكما خلق المخلوقات الخيره كالملائكة خلق الشريرة كالشياطين .

** وقد تكون أيضا لإظهار صفات الجلال . كالقهر والمنتقم وذى البطش الشديد ، كما أظهر صفات الجمال ، كالرحمن الرحيم الودود .

** وقد تكون الحكمة هى إظهار الأسماء المتضمنه لعفوه ومغفرته . كما قال الرسول ﷺ (لو لم تذنبوا لذهب بكم ثم أتى بقوم يذنبون فيستغفرونه فيغفر الله لهم) .

** وقد تكون الحكمة أن الله قبل أن يخلق آدم قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة : ٣٠ .

فوظيفة آدم فى الأرض . ومادام خليفة فهذا يعنى أن يحكم بين الناس فلا بد من تنازع ، ومادام هناك تنازع فلابد من وجود إبليس . وحتى يتميز من يعبد الله ويسبحه دون وجود منازع كالملائكة أو يعبده مع وجود المنازع ودواعى الهوى والشر ، ثم هو يتغلب على ذلك ويقبل على الله سبحانه وتعالى كالإنسان وهو مايطلق عليه بالابتلاء .

❋ ❋ ❋

حكم إنكار الجن

بعد أن ورد ذكر الجن فى القرآن الكريم والسنة النبوية فقد صار الإيمان بالجن جزءًا من الإيمان بالغيب . ومنكره كافر .

أما من يتأول الجن ويفسرها بتفسيرات بعيدة مثل من قال بأنها نوع من الميكروبات ، كما فى بعض التفسيرات الحديثة فهؤلاء مخطئون فى تفسيرهم ويحتاج إلى تصحيح فهم وتصويب فكر .

فالرسول لم يخصص جلسات ليجلس مع بعض الميكروبات ، ولا أن سورة الجن لبعض الميكروبات ، ومن المستبعد أيضا أن يكون من الميكروبات المؤمن والعاصى ، والذى يكون مآل المؤمنين منهم الجنة . والكافر النار .

ومن الملاحظ أن القضايا الغيبية مثل الملائكة والجن ، والنار والجنة ، والصراط والميزان . لامستند للإيمان بها إلا الوحى .

وكلما بعُد الكلام فى هذه القضايا عن الوحى كلما كان عرضه للخطأ والشطط .

فالجن يجب أن نؤمن بهم كما ورد فى الشرع ، وأن نؤمن تفصيلا بما فصله الشرع وما وراء ذلك فلسنا ملزمين بالبحث فيه .

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن

الكتب السماوية

** صحف إبراهيم وموسى .

** التوراة .

** الزبور .

** الإنجيل .

** القرآن الكريم .

الكتب السماوية

الديانات إما وضعية وإما إلهية . وأصحاب الديانات الوضعية لهم كتبهم المقدسة الخاصة بهم . فالبهائية لها كتاب (الأقدس) والبابية لها كتاب (البيان) وكذا الهندوسية والبوذية . ونحن نعتقد أن الكتب الخاصة بالديانات الوضعية هى أيضا من وضع البشر .

أما الأديان السماوية فإن لها دساتير سماوية أيضًا من هذه الكتب من أصابه التحريف والتبديل . ومنه مالم يتطرق إليه التحريف وظل محفوظا بحفظ الله عز وجل له مثل القرآن .

والإيمان بالكتب الإلهية ركن من أركان الإيمان كما أخبر الله عز وجل فى كتابه العزيز حيث قال : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ . . . ﴾ البقرة : ٢٨٥ . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ النساء : ١٣٦ .

كما بين الله عز وجل أن من أنكر الكتب فقد كفر وضل ضلالاً بعيدًا . حيث قال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ النساء : ١٣٦ .

وقدوتنا فى الإيمان بالكتب الإلهية التى نزلت على الأنبياء

من قبل . هو رسول الله حيث قال الله له : ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ . الشورى : ١٥ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ آل عمران : ٨٤ .

ونحن مطالبون أيضا من الله بأن نقول كما قال النبى ﷺ : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ . البقرة : ١٣٦ .

والإيمان بالكتب السماوية يعنى التصديق الجازم بأنها :

أولاً : منزلة من عند الله إلى رسله ليبلغوها إلى عباده .

وثانياً : بأنها كلام الله لا كلام غيره .

ثالثـا : أن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وداود وعيسى ومحمد قد نزل على هؤلاء كتب لكن منها ماهو متعين ومذكور ، ومنها مالا نعرف عنه شيئا . فنحن نؤمن إجمالا بما أجمله القرآن عن هذه الكتب وتفصيلا بما ورد تفصيله فى القرآن .

وقد ورد تفصيلاً فى القرآن الكريم أسماء كتب خمسة هى :

١ – **صحف ابراهيم وموسى** . فقد ورد فى القرآن الكريم أن لابراهيم وموسى صحفًا خاصة بهما حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝ ﴾ الأعلى ١٨ : ١٩ .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ ﴾ النجم ٣٦ : ٣٨ .

وقد ذكر رسول الله ﷺ نصوصًا من صحف ابراهيم كلها أمثال ، وأما صحف موسى فقد كانت كلها عظات وعبر .

٢ – **التوراة** : انزلها الله على سيدنا موسى قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ المائدة : ٤٤ .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ الأنعام : ٩١ .

وقال : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ المائدة : ٤٣ .

ومن مقتضيات الإيمان بالتوراة ونزولها على موسى الاعتراف بتحريفها ، حيث صرح القرآن الكريم بذلك حيث قال :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ النساء : ٤٦ .

وقال سبحانه : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة : ٧٥ .

وقال : ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ المائدة : ١٣ .

وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ آل عمران : ٧٨ .

وقال : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ الأنعام : ٩١ .

ودلائل التحريف ظاهرة لمن تدبر هذا الكتاب ، والذى يطلق عليه العهد القديم .

فصفات الله فى العهد القديم – الذين يزعمون أنه التوراة – تدل على التحريف حيث يصف الكاتب العهد القديم الله عز وجل بالبداء والندم والبكاء والجسمية .

وكذا صفات الأنبياء حيث وصف بعضهم بأقبح الصفات فداود عليه السلام يرتكب الزنا ، ولوط يفجر بابنتيه ، وسليمان يسجد

للأصنام فى آخر حياته . .

هذا عدا الاضطراب والاختلاف عند مقارنة النصوص بعضها ببعض والتى تشير إلى استحالة أن تكون هذه النصوص من عند الله الذى لا يضل ولا ينسى هذا وتجدر الإشارة إلى أن التوراة أو العهد القديم لم تبدل وتغير كلية بل إن بعضها صحيح وبعضها محرَّف . يشير إلى ذلك قول الله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ آل عمران : ٩٣ .

وقال : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ المائدة : ٤٣ .

٣ – **الزبور** : وهو الذى نزل على سيدنا داود عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ النساء : ١٦٣ .

واليهود يطلقون عليه المزامير . وهو سفر من الأسفار اليهودية التى يحويها العهد القديم . فطريق معرفتنا بالزبور إذًا هو العهد القديم ، والناظر فى مزامير داود يدرك أيضا أنها محرفة .

٤ – **الإنجيل** : وهو الذى أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام . والذى جاء مصدقًا للتوراة ، وفيه البشارة بمبعث النبى الخاتم محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ المائدة : ٤٦ .

وقال : ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ المائدة : ٤٧ .

والإنجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام قد لحقه مالحق التوراة من التحريف والتبديل .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ المائدة : ١٤ وقال : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ المائدة : ١٥ .

ويكفى لصحة التدليل على تحريف الإنجيل أن الكتاب الذى نزل على عيسى عليه السلام لا نجد له أثرًا وإنما الموجود الآن أناجيل منسوبة إلى أصحابها . مثل إنجيل متَّى ، وإنجيل يوحنا ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل بولس . وهذه الأربعة هى المعترف بها من بين أكثر من ستين إنجيلا ، أقربها إلى الصواب إنجيل برنابا .

ثم إن الناظر فى هذه الأناجيل يجد دون عناء الاضطراب واضحًا بين نصوصها ، وهذا الاضطراب دليل على أنها من عند غير الله سبحانه .

هذا مع ملاحظة أن علماء الإسلام فى مجال مقارنة الأديان قد أوضحوا فى غير لبس عوار هذه الكتب وما فيها من زيف وتحريف ، ثم جاء علماء الأديان فى الغرب ففندوها ، وأظهروا تناقضها أمثال موريس بوكاى وشارل جنبير وغيرهما .

٥ - **القرآن الكريم** : الذى نزل على سيدنا محمد ﷺ ، والمتعبد بتلاوته ، والمتحدى بأقصر سورة منه ، والمحفوظ من التحريف والتبديل ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه .

وهو معجزة الإسلام الخالدة والذى فيه نبأ ماقبلنا ، وخبر مابعدنا وحكم مابيننا ، وهو الذى لا يخلق من كثرة التلاوة ، وهو دستور الأمة الأول والذى تتعدد أوجه الإعجاز فيه والتى منها :

١ - **فصاحته وبلاغته** . الأمر الذى أعجز معارضيه أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور ، أو حتى بسورة . حتى نطق له الأعداء وشهدوا أن له حلاوة ، وأن عليه طلاوة ، وأن أعلاه مثمر ، وأن أسفله مغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه .

وأنهُ حين نزل قول الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ هود : ٤٤ . كان المشركون يرقصون رؤسهم طربًا لهذا الكلام .

٢ - **أثره فى النفوس** : ذلك أنه يضفى على النفس خشوعًا

وعلى القلوب هيبة ورقة ، لاتجدها فى غيره . ذلك لأنه تنزيل من حكيم حميد . ألم ترى مافعل بقلوب أهل مكة حتى قالوا : إنه سحر وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه .

ألم يبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته حين سمعه ، ألم ينفض عمر بن الخطاب عن نفسه غبار الكفر حين سمعه ، ألم تفض بالدمع عيون القساوسة والرهبان حين سمعوا ما أنزل إلى الرسول وصدق الله ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ الحشر : ٢١ .

٣ – **اختراقه لحجب الغيب** : سواء الماضية منها كما فى قصص الأولين من الأمم والأنبياء وإيراده لتفاصيل لم توجد فى كتاب سابق . مع قول الحق لرسوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ ﴾ ، ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ .

والمستقبلة كما فى قوله : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة : ١٤٢ . وقوله : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ القمر : ٤٥ .

وقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ ﴾ المسد : ٣ <

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ القصص : ٨٥ .

وقوله : ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ ﴾ الروم ٢ : ٥ .

وأيضا يخترق حجب الضمائر التى لايمكن الاطلاع عليها من جانب المخلوقين كما حدث مع المنافقين . كما قال : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ المجادلة : ٨ . وقال : (بيت طائفة منهم غير الذى تقول) وقال (يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) .

٤ – اشتماله على العلوم والفنون التى تفى بمتطلبات البشرية فى كل زمان ومكان حيث فيه العلوم الأخلاقية والقانونية والاقتصادية والسياسية والأمنية والطبية . وفوق ذلك فيه متطلبات البشرية الروحية وصد ق الله إذ يقول : ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِى ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَىۡءٖ ﴾ .

❋ ❋ ❋

الفصل التاسع
الأنبياء والرسل

** التعريف .

** الفرق بين النبى والرسول .

** مكانتهم وحكم الإيمان بهم .

** الحكمة من إرسال الرسل .

** خصائص الرسل .

** عصمة الرسل .

الأنبياء والرسل

تعريف النبى : هو فى اللغة مشتق إما من النبأ وهو الخبر كما قال تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ﴾ النبأ ١ ، ٢ . وذلك لأن النبى مخبر عن الحق سبحانه وتعالى .

وإما من النبيئ وهو الطريق . لأن النبى وسيلة وطريق توصل إلى الله سبحانه وتعالى .

وإما من النبوة - على وزن ربوة - وهو المكان المرتفع وذلك لارتفاع شأن النبى واشتهاره وسط قومه .

وأما فى الاصطلاح : فالنبى هو إنسان بعثه الله لتبيلغ ما أوحى إليه .

تعريف الرسول : هو فى اللغة من الإرسال وهو التوجيه كما قال تعالى على لسان بلقيس : ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ النمل : ٣٥ . أى سوف أبعث إليهم بهديه .

وقال أيضا على لسان ساقى الملك : ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ ﴾ يوسف : ٤٥ . أى فابعثونى إلى يوسف حتى آتيكم بتأويل الرؤيا .

وفى الاصطلاح : إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحى إليه بشرع جديد

❋ ❋ ❋

الفرق بين النبى والرسول

هناك من العلماء – وخاصة المعتزلة – من يذهب إلى عدم الفرق بين النبى والرسول . فكل رسول نبى وكل نبى رسول .

والحقيقة أن من يتأمل كتاب الله وكذا ماورد من أحاديث عن رسول الله يدرك أن هناك فرقاً بين النبى والرسول .

فالقرآن الكريم يعطف النبى على الرسول قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ الحج : ٥٢ . كما أن وصف بعض الرسل بالنبوة والرسالة يشير إلى الفرق بينهما . قال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ مريم : ٥١ .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا ، وعدد الرسول ثلاثمائة وبضعة عشر رسولا) .

معنى ذلك أن هناك فرقًا بين النبى والرسول . لكن ماهو الفرق ؟

يرى البعض أن النبى هو من أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ ، والرسول من أمر بالتبليغ وهو رأى باطل من وجوه :

أولاً : أن الله أخبر بأنه أرسل إلينا الأنبياء ، كما أرسل الرسل

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ الحج : ٥٢ .

ثانيًا : قول النبى ﷺ : (عرضت علىَّ الأمم رأيت النبى ومعه الرهط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد) .

ثالثًا : أن الله ذكر صراحة أن النبى مرسل من عنده أيضا . ومادام مرسلاً فهو يبلغ ما أرسل به قال تعالى : ﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ الزخرف : ٦ .

والفرق كما أرى والله أعلم بالصواب أن النبى مأمور من الله وموحى الله بتبليغ شرع من سبقه بخلاف الرسول المأمور من الله بتبليغ شرع جديد . مع ملاحظة أن الرسول لابد وأن يكون نبيًا بخلاف النبى الذى قد يتوقف عند رتبة النبوة فقط .

ولهذا قال الحق سبحانه فى شأن موسى (إنه كان مخلصا وكان رسولاً نبياً) .

ومن أجل ذلك قيل كل رسول نبى وليس كل نبى رسول مع ملاحظة أن دائرة الرسالة من حيث الكيف أوسع معنى لأنها تشمل بجانب الرسالة النبوة .

كما أن دائرةَ النبى من حيث الكم أوسع إذ تشمل الأنبياء والرسل . ولعل هذا مايؤكد بلاغة الرسول ﷺ حيث قال : (أنا العاقب فلا نبى بعدى) . وهذا يشمل ولا رسول أيضا .

مكانة الأنبياء والرسل وحكم الإيمان بهم

الأنبياء والرسل هم أعظم ماخلق الله سبحانه وتعالى . ومن المقرر أن الكون كله مسخر من أجل الإنسان ، والإنسان مسخر من أجل الله .

ففى الأثر أن الحق سبحانه يقول : (عبدى خلقتك من أجلى ، وخلقت الأشياء من أجلك ، فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له) .

فالإنسان أعظم المخلوقات وأكرمها عند الله ، فهو إذا على رأس المخلوقات من حيوانات وجمادات وجان ، مع خلاف فى شأن الملائكة .

والبشر نوعان : مؤمن وغير مؤمن . والمؤمنون هم أفضل البشر ، والمؤمنون نوعان : أنبياء وعامة .

فالأنبياء أعظم المؤمنين ، وعدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفًا ، اصطفى الله منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً ، واصطفى الله من الرسل خمسة هو أولى العزم ، وهم (نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم جميعا) .

واصطفى من أولى العزم من الرسل خليلين هما ابراهيم كما قال تعالى : (واتخذ الله ابراهيم خليلا) ومحمد ﷺ حيث قال ﷺ : (واتخذ الله صاحبكم خليلا) يقصد نفسه .

ثم اصطفى من الخليلين سيدًا للبشر جميعا بما فيهم الرسل وهو محمد ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ : (أنا سيد ولد آدم) ، وقال : (أنا سيد الأولين والآخرين) فرسول الله محمد ﷺ هو أفضل ماخلق الله على الإطلاق .

أما حكم الإيمان بالأنبياء والرسل فهو أحد أركان الإيمان الأساسية كما قال ﷺ : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ للبقرة : ٢٨٥ .

بل إن من يؤمن بالله ويؤمن بالرسل إلا رسولاً قد قصه الله علينا يكون كافرًا ، لأن من أساسيات إيمان المؤمنين ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ آل عمران ٨٤ .

ولهذا فقد ساوى الله بين الكفر بالرسل والكفر به ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ النساء : ١٣٦ .

والكافر حقًا من يؤمن ببعض الرسل ويكفر بالبعض الآخر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟

بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ النساء ١٥٠ – ١٥١ .

ومن هنا فعنوان إيمان المؤمن عدم التفريق بين الأنبياء فى أصل الإيمان كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ النساء : ١٥٢ .

ومن هنا فإن رسول الله ﷺ قد نهى عن تفضيله على موسى ويونس بن متى: فقد قال : (لا تفضلونى على أخى موسى) ، (وما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى) أى فى أصل الإيمان أو التفضيل الذى يؤدى إلى التنقيص ، وإلا فإن الرسول أفضل الأنبياء والرسل . بدليل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ البقرة : ٢٥٣ . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ الإسراء : ٥٥ .

وقال ﷺ : (لو كان أخى موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى) .

* * *

الحكمة من إرسال الرسل

لاشك أن البشرية طوال تاريخها لم تستغن قط عن الرسل ، ولا عن توجيهاتهم وتشريعاتهم .

صحيح أن بداخل كل إنسان فطرة توجهه إلى الخالق هى بمثابة بوصلة ترشده إلى ربه ومولاه ، وصحيح أن لكل إنسان عقلاً يفكر به ويختار به بين البدائل ويميز به بين الخبيث والطيب

وصحيح أيضا أن الكون من حول الإنسان من عوالم علوية وسفلية تكاد تنطق بوجود البارى ووحدانيته وقدرته وعلمه ، لكن مع ذلك فإنه لا غناء للبشرية عن مناهج الرسل وتوجيهاتهم حتى ولو كانت الفطر كلها سليمة ، والعقول كلها راشدة ، فما بالك لو انتكست فطرة البعض ، وضلت العقول ، واتبع الناس أهواءهم ، وضلوا عن سواء السبيل .

لهذا كانت الرسل والأنبياء فى كل أمة من الأمم منذ آدم وحتى محمد ﷺ .

كما قال الحق سبحانه : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) وقال (ولكل قوم هاد) .

وقد ذكر العلماء حكمًا وفوائد كثيرة لإرسال الرسل منها :

١ – مساندة العقل فيما يستقل به مثل وجود الله سبحانه

وتعالى ، ويكون ذلك بمثابة دليلين على مدلول واحد (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

٢ – استفادة الحكم من الرسول فيما لا يستقل به العقل ، مثل الكلام عن الرؤية والقضاء والقدر ، والأمور الأخروية .

٣ – بيان تفاصيل ثواب المطيع وعقاب العاصى . ترغيباً فى الحسنات وترهيبًا من السيئات .

٤ – إشباع الجانب الروحى فى الإنسان . وذلك لايكون إلا بالمنهج الذى يأتى به الرسول . قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد : ٢٨ .

٥ – بيان منافع الأغذية والأدوية ومضارها التى لا تفى بها التجربة إلا بعد مدة طويلة مثل الحبة السوداء وأنها شفاء من كل داء ، وتحريم لحوم الخنازير . . إلخ .

يقول ابن القيم رحمه الله (لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا على أيدى الرسل . ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم ، فالطيب من الأقوال والأعمال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به) .

وإذا كانت البشرية فى طورها الأول كانت فى حاجة ماسة

إلى الأنبياء والرسل فنحن الآن ورغم التقدم العلمى والتكنولوجى فى أمس الحاجة إلى هدى السماء .

وما ذالك إلا لأن هذه المدنية قد قامت على إرواء الجانب الجسدى من الإنسان وأهملت الجانب الروحى فيه . ولهذا شقى الإنسان لأنها حضارة مادية صرفة ، أو كما يقول الشيخ الغزالى حضارة الأشياء .

وصحيح أن العلم يدعو للإيمان ولكن البشرية وللأسف قد شقيت داخليا بهذا العلم الذى يعتبره البعض دجَّال هذا العصر ، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝ ﴾ الروم : ٧ .

* * *

الحكمة من إرسال الرسل والأنبياء

إرسال الرسل والأنبياء ليس واجبًا على الله – كما قالت المعتزلة – بل هو جائز فى حقه ، ولطف منه لأنه لا يجب على الله فعل شئ بل هو تفضلاً منه سبحانه ورحمة بعباده حتى لا يكون للناس حجة عليه .

فقد قال سبحانه فى شأن النبى محمد ﷺ : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة : ١٥١ .

❋ ❋ ❋

خصائص الرسل والأنبياء

إن رسل الله عز وجل وأنبياءه بشر مثل سائر البشر يعتريهم ما يعترى البشر ويجوز عليهم ما يجوز على البشر مثل :

** **الأكل والشرب** : كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ الفرقان : ٧ .

** **الزواج والجماع** : كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ الرعد : ٣٨ . وقال الرسول ﷺ : (ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء) .

** **المرض** : كما قال تعالى على لسان أيوب : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ الأنبياء : ٨٣ . وقول الرسول محمد ﷺ : (إنى لأوعك كما يوعك الرجلان منكم) .

** **النسيان** : كما قال تعالى عن آدم : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه : ١١٥ . وقول النبى ﷺ : (إنى بشرٌ مثلكم أسهو كما تسهون) وقد صلى الظهر ركعتين . وقال : (إذا نسيت فذكرونى) .

** **الغضب** : قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ﴾ الأعراف : ١٥٠ . وكان رسول الله يغضب ولكن غضبه كان لله

** **الخوف** : قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ طه : ٤٥ . وقال عن داود : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾ ص : ٢٢

** **الموت** : قال تعالى لحبيبه محمد ﷺ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ الأنبياء : ٣٤ .

هذا وغيره يدل على بشرية الرسل والأنبياء ، وأنهم ليسوا ملائكة وتلك حكمة آلهية حيث لم يرسل إلى البشر ملكًا ، حتى يكون للناس بهم إلْف وحتى يكونوا قدوة لأقوامهم فى اتباع الأوامر واجتناب النواهى ، ثم إن طبيعة البشر لا تقوى على الالتقاء بالملائكة . قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ الإسراء : ٩٥ .

معنى ذلك أنه إذا كان المرسل ملكًا للزم أن يأتى فى صورة بشر حتى يكلم الناس ، وتبقى الإشكالية موجودة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ الأنعام : ٩ .

لكن مع أن الأنبياء والرسل من جنس البشر لكنهم يمتازون عن غيرهم بعدة ميزات هى :

١ – **الوحى** : ويقصد به الوحى التشريعى الذى يأتى عن

طريق جبريل عليه السلام ليبلغه الرسول إلى الناس . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ الكهف : ١١٠ . ، وقال : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ النساء : ١٦٣ ، وقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء : ٢٥ .

٢ – **تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم** : ذلك أن الأنبياء قلوبهم فى يقظة مستمرة ، إما لأنهم يحملون همَّ الدعوة والرسالة وإما لاتصال قلوبهم بالله سبحانه ، ويتفكرون دائما فى خلق السماوات والأرض .

يقول رسول الله ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا) .

٣ – **أنهم يدفنون حيث تقبض أرواحهم** : فقد اختلف الصحابة بعد موت رسول الله ، فمنهم من قال : نذهب به إلى مكان مولده بمكة فيدفن بها ، ومنهم من قال ندفنه فى القدس حيث مدافن إخوانه من الأنبياء ، ومنهم من رأى أن يدفن فى البقيع ، ولكن أحد الصحابة قال : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول (الأنبياء يدفنون حيث يموتون) فدفن فى حجرته الشريفة .

٤ – **أن الأرض لا تأكل أجسادهم** : بمعنى أن أجسادهم لا تبلى ولا تأكلها الديدان . فيظل جسم النبى كما هو . يقول النبى

ﷺ : (ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام . فقالوا : كيف وقد أرمت – تحلل جسدك – فقال : إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) .

٥ – **أن الأنبياء لا يورَّثون** . قال رسول الله ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ماتركناه صدقة) فأى مال يتركه النبى إنما يكون للأمة من بعده . .

لأن ميراث النبى الحقيقى هو منهجه الذى أتى به وشرعه الذى شرعه الله له . ومن هنا يفهم معنى قول زكريا عليه السلام حين طلب من ربه أن يرزقه ولدًا ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ مريم : ٦ . يريد ميراث أمر الدعوة وخدمة بيت المقدس .

٦ – **أن الأنبياء أحياء يصلون فى قبورهم** . يقول النبى ﷺ : (مررت ليلة أسرى بى بأخى موسى قائم يصلى فى قبره) وليس فى هذا الأمر غرابة مادامت أرواحهم وأجسادهم على حالها كما سبق ، وعدم رؤيتنا للأنبياء يصلون فى قبورهم لا ينفى هذا الأمر لأنه تحكمنا قواعد الحياة الدنيا التى نعيشها .

ومرحلة البرزخ تختلف عن الحياة الدنيا كما تختلف الحياة الدنيا فى قوانينها عن الآخرة .

لكن رسول الله ﷺ رأى موسى لأن الله عز وجل أكرمه بخرق القانون البرزخى ، حيث كان يسمع عذاب القبر . كما أكرمه بخرق

القانون الأخروى فرأى الجنة والنار وقال لبلال رضى الله عنه : سمعت دف نعليك فى الجنة .

٧ – **الأنبياء والرسل معصومون** . والعصمة تعنى عدم تعمد الوقوع فى المعصية . وهم بهذا المعنى معصومون من قبل الله عز وجل لأنه أختارهم واصطفاهم وصنعهم على عينه ولنفسه فلا يتصور والحال هذه أن يعصوا الله عمدًا . وهذا ماسوف نفصله .

❋ ❋ ❋

عصمة الأنبياء والرسل

العصمة فى اللغة : المنع . تقول عصمه يعصمه عصما : منعه ووقاه ، واعتصم فلان بالله : امتنع به ، والعصمة : الحفظ وهى قريبة المعنى من المنع .

وفى الاصطلاح : الامتناع عن فعل القبائح والمعاصى قصدًا .

والعصمة أنواع :

** **عصمة فى الاعتقاد** . وقد أجمع العلماء على عصمة الأنبياء وعلى تنزيه الأنبياء قبل البعثة وبعدها عن الكفر عمدًا أو سهوًا .

** **عصمة فى الأفعال** : وقد أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء عن فعل الكبيرة عمدًا أو سهوًا مع اختلافهم حول جواز الصغيره منهم بعد البعثة والأكثر على عصمتهم عن الصغيرة عمدًا .

** **عصمة فى التبليغ** : وقد أجمع العلماء على عصمة الأنبياء عن الكذب فى التبليغ عن الله بل هى ركن ثابت فى عقيدة المؤمن .

** **عصمة فى القضاء** : فإن كانت فى التشريع العام فلا يجوز الخطأ فيها مطلقًا ، وإن كانت فى قضايا شخصية واجتهد

فيها حسب ماسمع من بينات وقرائن فقد يخطئ وقد يصيب ، ولهذا فإن رسول الله قد نبه على ذلك فى قوله : (إنما أنا بشر ، ولعل أحدكم أن يكون ألْحن بحجته من أخيه ، فمن حكمت له فإنما أقتطع له قطعة من النار) .

وقد ينسب اليهود - وكذا النصارى - عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى الأنبياء والمرسلين أعمالاً وأقوالاً لا أقول تخل بالعصمة ولكنها تخل بشرف الأنسان العادى . بل إنهم ينسبون إلى الأنبياء سلوكيات يأباها حتى أسقط الناس وأسفلهم .

(ففى سفر التكوين إصحاح ١٩ عدد ٣٠ أن لوطا عليه السلام قد فجر بابنتيه بعد أن شرب الخمر) ومعاذ الله أن يفعل وهو الطاهر حتى بشهادة أهل قريته .

(وفى صمويل الثانى إصحاح ١١ عدد ١ أن داود عليه السلام قد زنى بزوجة (أوريا) أحد الجنود ، ودبر حيلة لقتله) وحاشاه ﷺ وهو الأوَّاب المنيب .

(وفى سفر الملوك الأول إصحاح ١١ عدد٥ أن سليمان ارتد فى آخر حياته ، وعبد الأصنام وبنى لها المعابد)

هذا عدا ماذكروه عن ابراهيم الخليل وعن موسى وهارون ، ويعقوب عليهم جميعًا السلام .

ومن يقرأ عن التاريخ اليهودى وتعاملهم مع الأنبياء يدرك أن علاقتهم بالأنبياء تقوم على مبدأين :

أولهما : أنه لا عصمة لنبى حتى لو كان فى وزن ابراهيم الخليل عليه السلام .

ثانيهما : أنه لاحرمة لنبى حتى ولو كان فى وزن موسى عليه السلام ، الذى آذوه حتى أوصلوه إلى درجة أنه خلع عين ملك الموت حين دخل عليه ظنا منه أنه اسرائيلى . ولهذا حذَّر القرآن الكريم أمة محمد أن تكون مثل هؤلاء فى تعاملهم مع نبيهم فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ الأحزاب : ٦٩ .

والمسلمون بخلاف أهل الكتاب – لا يفرقون بين أحد من رسل الله ، كما أنهم يحفظون للأنبياء مكانتهم ويجلونهم حتى ولو كان أتباعهم من أشد الناس عداوة لهم بل إن المسلمين أولى بهؤلاء الرسل من أتباعهم .

كما أنهم يعتقدون بعصمتهم من تعمد المعاصى والذنوب ، وما ورد عن هؤلاء الأنبياء من أخبار تشير إلى وقوع الذنب منهم فإن لهذه الأخبار تأويلات واحتمالات لا تتنافى مع العصمة . **من هذه الاحتمالات .**

١ – أن يكون ذلك قد وقع من النبى سهواً ونسياناً . مثل

ماوقع من آدم عليه السلام حيث أكل من الشجرة حتى بدت له ولزوجه سوءاتهما والحق سبحانه قد ذكر أن آدم لم يكن متعمدًا الوقوع فى المخالفة . قال تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ طه : ١١٥ . أى سهى عن الأمر بعدم الأكل ولم نجد له عزيمة وقصدًا على المخالفة .

وقد اعتبر هذا النسيان عصيانًا إما من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وإما أن يكون ذلك بالنظر إلى الفعل دون اعتبار لحال فاعله .

٢ – أن يكون ذلك من النبى قبل النبوة ، وذلك مثل ماحدث من موسى عليه السلام حين وكز المصرى القبطى فقضى عليه .

ذلك أن موسى عليه السلام كان قد وقع منه هذا الفعل قبل الذهاب إلى مدين وقد مكث فى مدين حوالى عشر سنوات ثم نزلت عليه الرسالة فى رحلة العودة .

ثم إن موسى قد قضى على القبطى خطأ وليس عامدًا ، حيث قال الله : ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ القصص : ١٥ . والوكز هى الإزاحة بأصابع اليد مجتمعة . فهو ليس قتلاً مع سبق الإصرار والترصد كما يقول رجال القانون ، وإنما أسند القتل إلى موسى لأن الفعل قد يسند إلى من وقع على يديه الفعل وإن لم يكن عامدًا كما

قال تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا ﴾ النساء : ٩٢ . وطلب المغفرة من موسى عليه السلام لأن مثله لا يقع منه هذا الفعل .

٣ – أن يكون الفعل من باب ترك الأولى : وذلك مثل ما حدث لرسول الله محمد ﷺ فقد جاءه ابن أم مكتوم وهو يحاور المشركين فأخَّره قليلا أملاً فى إسلام هؤلاء ، لكنه عوتب فى ذلك فقال سبحانه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ ﴾ عبس : ١ ، ٢ .

فرسول الله فى ميزان البشر لم يرتكب خطأ حيث كان الهدف أن يسلم هؤلاء المشركون فيكون نصرًا للدعوة ، لكن الله سبحانه يريد من النبى أن لا يجهد نفسه مع هؤلاء وينظر لهذا الأعمى ويعلمه . فالعتاب من الله لصالح النبى ﷺ .

ومثلها أيضا ماحدث فى أمر زيد بن حارثه حين نسبه رسول الله إلى نفسه . وذلك لأن زيدًا قد اختار رسول الله على أبيه فأراد رسول الله أن يكافأه . ولكن الله عز وجل له مقاييس أخرى فلم يمنع أنَّ رسول الله فعل العدل والقسط . ولهذا قال تعالى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ الأحزاب : ٥ .

ومثلها أيضا حين أذن رسول الله ﷺ للذين تخلفوا عن المعركة فعاتبه الله عز وجل عتاب الحبيب لحبيبه الذى يقدم العفو على المؤاخذة فيقول : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ التوبة : ٤٣ .

٤ – أن المخالفة لم يكن قد نزل فى حقها تشريعًا ، وذلك مثل ماحدث لرسول الله ﷺ حين استغفر لعمه ، وللمشركين والصلاة على المنافقين .

٥ – أن يكون للفعل تأويل آخر يخرجه عن كونه معصية مثل ماحدث فى قصة نبى الله يوسف حيث قال الله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ يوسف : ٢٤ .

فالهم يمكن تأويله باستعمال القوة والضرب ، ويكون المعنى مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ غافر : ٥ . وبرهان ربه هو الذى منعه من ضربها لئلا يفضى إلى الموت أو إكرامًا لزوجها الذى قال لها : ﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ يوسف : ٢١ . أو يكون الكلام على سبيل التقديم والتأخير ويكون التقدير ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها .

أو يكون الهمَّ هنا ما يجده الإنسان فى نفسه وهو مايسمى فى علم النفس بالإدراك . وهو غير ممتنع لأنه مع كونه نبيًا فهو ليس ملكا . والخطأ ليس فى الإدراك بل هو فى الوجدان أو النزوع . ولعل الآية إنما جاءت بهذا الأسلوب ليدل على أن يوسف إنما كان رجلا مكتمل الفحولة ولولا برهان ربه وهدايته لنزع إلى ماتطلبه منه امرأة العزيز .

والمؤمنون الموفقون هم الذى يقولون : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ الأعراف : ٤٣ .

٦ – أن يكون الفعل من باب الصغائر المعفو عنها . فقد قال جمهور العلماء أن الأنبياء قد تقع منهم الصغائر بشرط أن لا تتكرر بل الوحى ينبه النبى عليها فيتنبه ، وأن لا تكون الصغيرة منفرة التى لا تخل بالعصمة ، ولا تذرى بقدر النبى والرسول . وذلك مثل ماوقع من نبى الله داود حين جاءه المتخاصمان فحكم بمجرد سماعه لأحدهما . وقال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ﴾ ص : ٢٤ . ولذا لما نبهه الله تعالى تنبه واستغفر ربه على عجلته فى الحكم .

أما أن الأنبياء جميعًا يستغفرون من الأفعال هذه ويتوبون إلى الله منها حيث قال آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف : ٢٣ ، وقال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ القصص : ١٦ ، وداود : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ ص : ٢٤ ، وقال سليمان : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ص : ٣٥ ، وأن الرسول محمد كان يستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة . فإن ذلك كله من باب هضم النفس والإحساس بالتقصير ، ثم إنه ليس كل استغفار لسبق ذنب ، فربما يُستغفر بعد الطاعة كما قال تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الذاريات : ١٧ ، ١٨ ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ المؤمنون ٦٠ .

* * *

الفصل العاشر
نبوة سيدنا محمد

** الكلام عن المعجزة .

** الكلام عن الوحى .

** معجزة القرآن الكريم .

** بشائر النبوة الخاتمة .

** أنواع معجزات الرسول ﷺ .

نبوة سيدنا محمد ﷺ

إذا سأل سائل ما الدليل على نبوة محمد ﷺ . فليس من اللائق أن نذكر له آيات الكتاب العزيز الدالة على صدقه وعلى كونه رسولاً ، وإن كانت كلها حقا وصدقًا .

لكن المدخل إلى هذا المعترض أن نوضح له فى أسلوب ميسر بسيط الدليل العقلى على نبوة النبى ، ثم نذكر له بعد ذلك ماشاء الله من آيات وأحاديث تدل على أنه رسول :

فنقول إنه ﷺ أدعى الرسالة وأظهر المعجزة على وفق هذه الدعوى ، وكل من كان كذلك فهو رسول .

دعواه الرسالة :

أما دعوى النبى للرسالة فذلك مشهور معروف لدى الناس سواء عند من آمن به ، وعند من لم يؤمن به حتى بلغت حد التواتر وحتى منكرو الأديان مثل كارل ماركس يعلم أن محمدًا قد ادعى النبوة .

وأما إظهار المعجزة :

فلأنه أتى بالقرآن وأخبر عن أمور غيبية ، وأظهر الله على يديه أفعالاً خارقة للعادة ، ويلحق بالمعجزة الدلائل الواردة فى الكتب السابقة .

فإظهار الخارق للعادة على يد الرسول يكون بمثابة التصريح من الله للناس بأن هذا المدعى صادق فى دعواه .

إذ من المعلوم أنه ليس كل أحد يدعى النبوة يلزم تصديقه بل لابد من بينة تفرق بين الدعىِّ والنبى . وهذه البينة هى ماتسمى بالمعجزة .

* * * * * *

المعجــزة

وهى فى اللغة : اسم فاعل مأخوذ من العجز الذى هو زوال القدرة عن الاتيان بالشئ من عمل أو رأى أو تدبير .

وفى الاصطلاح : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة .

وشروط المعجزة :

١ – أن تكون خارقة للعادة .

٢ – أن تقع على يد مدعى النبوة ومن جهته .

٣ – أن تكون مقرونة بدعوى النبوة .

٤ – أن تكون موافقة للدعوى .

٥ – ألا تكون فى زمن نقض العادة .

٦ – ألا يمكن معارضتها ممن ليس بنبى .

٧ – أن تكون من جنس ماغلب على القوم وهذه خاصة بالمعجزة الكبرى لكل نبى .

ويجب أن يعلم أن الآيات والمعجزات التى أعطاها الله لرسله وأنبيائه يمكن اندراجها فى ثلاثة أمور :

العلم ، والقدرة ، والغنى كما يقول ابن تيمية .

فالأخبار عن الأمور الغيبية الماضية والآتية ، والمستورة التى لا يطلع عليها أحد كل ذلك من باب العلم .

وتحويل العصا إلى حية ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وشق القمر ، وناقة صالح . . . من باب القدرة .

وعصمة النبى من أن يناله أعداؤه ، وحمايته ممن أراده بسوء من باب الغنى .

كما ينبغى العلم بأن المعجزة تدل على صدق النبى ، ولكنها لا تؤدى إلى التصدق . فإنه لا تلازم ضرورى بين المعجزة والتصديق بدليل أن كثيرًا ممن رأوا آيات الأنبياء ظلوا على كفرهم وعنادهم ، على الرغم من أن بعضهم قد اقترح بعض هذه الآيات لكنهم كذبوا بها حين وقعت مثل ما حدث مع نبى الله صالح . قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ الإسراء : ٥٩ .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الوحـــى

تعريف الوحى : الوحى هو الأعلام الخفى السريع ، مهما اختلفت أسبابه فقد يكون إلهامًا . مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ المائدة : ١١١ . وهو ماحدث مع أم موسى أيضا : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ القصص : ٧ .

وقد يكون إيماءًا وإشارة مثل ماحدث من سيدنا زكريا لقومه : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾ مريم : ١١ .

وقد يطلق الوحى ويراد به الوسوسة كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ الأنعام : ١٢١ .

وقد يطلق على ما أودعه الله فى فطر الكائنات كما قال فى شأن النحل : ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ النحل : ٦٨ .

وفى الاصطلاح : يراد به إعلام الله من اصطفاه من عباده بطريقة سرية غير معتادة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ النساء : ١٦٣ .

صور الوحى إلى الرسل :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآىِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ الشورى : ٥١ .

الصورة الأولى :

الإلقاء فى الروع . وقد يطلق عليه الوارد الرحمانى ، أو النفث فى الروع . وقد يكون هذا الإلقاء يقظة أو منامًا .

أما منامًا فإن رؤيا الأنبياء حق وصدق . قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : (إن أول مابدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، وكأن لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) .

أما يقظة فهى المقصودة بقول النبى ﷺ : (إن روح القدس نفث فى روعى إن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب) .

وأرى أنه لا فرق بين اليقظة والمنام فيما يتعلق بالإلقاء فى الروع لأنه سبق أن قلب النبى فى يقظة تامة .

الصورة الثانية :

تكليم الله لرسله مباشرة من وراء حجاب مثل ماحدث لكليم الله موسى عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ الأعراف : ١٤٣ .

وكما حدث لآدم عليه السلام : ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ البقرة : ٣٣ .

وكما حدث لحبيبه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج .

الصورة الثالثة :

عن طريق جبريل عليه السلام . وجبريل هو سفير الله إلى أنبيائه وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ الشورى : ٥١ .

وأغلب التشريعات الإلهية والكتب السماوية كانت عن طريق سيدنا جبريل عليه السلام .

أحوال جبريل عليه السلام مع النبى ﷺ :

من خلال التأمل فى سيرة النبى محمد ﷺ نجد أن للملك ثلاث حالات :

الأولى : رؤيته على صورته الحقيقية التى خلقه الله عليها . ولم يحدث هذا سوى مرتين .

الثانية : أن يأتيه على مثل صلصلة الجرس ، فيذهب عنه وقد وعى الرسول كل ماقال .

الثالثة : أن يأتيه فى صورة رجل يكلمه ويخاطبه . وهذه أخف الحالات . وأكثر ما كان يأتى جبريل فى صورة الصحابى الجليل دحية الكلبى .

وأما حالة النبى ﷺ مع الوحى فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : (إن الرسول كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا) .

وربما يكون الرسول على الناقة فيضرب حزامها ، وتكاد تبرك به من ثقله فوقها .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

معجزات النبى محمد ﷺ

لقد أيَّد الله سبحانه نبينا محمداً ﷺ بآيات مبصرات ، ومعجزات باهرات تدل دلالة قاطعة بأنه رسول من عند الله ، وقد عدَّها بعض العلماء فقاربت على ألفى معجزة .

ويمكن لنا أن نقسم دلائل النبوة لـدى رسـول الله ﷺ إلـى : معجزات معنوية ، ومعجزات حسية ، وبشارات من كتـب إلهيـة سابقة .

معجزة القرآن الكريم :

إن أعظم آية تحدى بها رسول الله ﷺ العـرب هـى القـرآن الكريم ، والقرآن معجزة الإسلام الخالدة التى لم ولن يطرأ عليهـا تبديل ولا تحريف .

وقد تحدى الله عز وجل بهذا الكتاب فصحاء العرب وبلغاءهم فعجزوا عن معارضته وهم أرباب فصاحة وبلاغـة ، بـل إنهـم لفصاحتهم وبيانهم يقيمون أسواقًا للكلام والشعر يتبارون فيها مثـل عكاظ وذى المجاز .

بل إنهم آثروا الحرب والقتال على معارضة القرآن ولو كانوا يقدرون على المعارضة لعارضوا ولنقل إلينا هذا الخبر .

ولقد ترقى القرآن فى التحدى حيث طالبهم بأن يأتوا بمثله كما

قال : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ ﴾ الطور : ٣٤ ، فعجزوا .

ثم طالبهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله ، كما قال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ هود : ١٣ ، فعجزوا .

ثم طالبهم أن يأتوا بسورة واحدة كما قال : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ البقرة : ٢٣ فعجزوا .

فجاء الخطاب القاطع : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء : ٨٨ .

ولكون القرآن معجزًا فى بلاغته وفصاحته وهم أرباب فصاحة وبلاغة كانوا يسترقون السمع لرسول الله وهو يتلو القرآن ولعل هذا هو السر فى قولهم : ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ المدثر : ٢٤ . وذلك لأنه فوق طاقة البشر وفوق مستواهم ، ولأنه يأخذ بألبابهم وقلوبهم لدرجة كانوا يتواصون بعدم الإنصات له حتى لا تأخذهم روعته . ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ ﴾ فصلت : ٢٦ .

وأغلب العلماء على أن السر فى إعجاز القرآن عدة أمور :

أولاً : لكونه فى الطبقة العليا من الفصاحة والغاية القصوى من البلاغة .

ثانيًا : اشتماله على الأمور الغيبية الماضية منها والآتية والآنية التى كانت وقت نزوله ولم يطلع عليها أحد .

أما الأخبار الماضية فمثل قصص الأنبياء والأمم السابقة وتفاصيل بعض الأحداث التى لم تكن مبثوثة فى كتاب ولا مشهورة عند الناس ، مع العلم بأن الرسول لميكن يقرأ كتاب ولا يخط بقلم . ولهذا قال له الله فى كثير من الآيات (وما كنت) مثل قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ﴾ هود : ٤٩ ، (وما كنت بجانب الطور) ، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ ﴾ ، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ ﴾ آل عمران : ٤٤ ، ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ آل عمران : ٤٤ . وهى التى يسميها العلماء [ما كُنَّان القرآن] .

أما إخبار القرآن عن الأمور المستقبلية فمثل قوله : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ القمر : ٤٥ ، ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الروم : ٢ ، ٣ ، ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ البقرة : ١٤٢ .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فصلت : ٥٣ .

وأما الأمور التى كانت غيبا فى زمن النزول ولكن لم يطلع عليها أحد فمثل قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ المجادلة : ٨ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ محمد : ١٦ .

ثالثًا : اشتماله على دقائق العلوم الألهية والأخروية .

رابعًا : احتوائه على كثير من النظريات العلمية والإعجازات الكونية إنطلاقًا من قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت : ٥٣ .

والإعجاز فى السبق العلمى من المسائل التى تحتاج فى بيانها إلى مجلدات ، حيث اشتمل القرآن الكريم على حقائق فى كل علم لم تكن معروفة فى عصر نزوله .

ومن الغريب والمعجز أن هذه الحقائق مذكورة فى القرآن قبل اكتشافها بمئات السنين بطريقة لا تثير أى جدل أو اعتراض عليها ومن بين هذه الحقائق من كان التصريح بها فى أوربا نوعًا من الهرطقة ، والكفر الذى يؤدى بقائله إلى المحرقة أو السجن مع أنها متداولة فى الوسط الإسلامى منذ ثمانمائة عام .

ومن النماذج الدالة على الإعجاز العلمى فى القرآن :

** **كروية الأرض** : وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ ﴾ الزمر : ٥ ، وقوله أيضا : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ النازعات : ٣٠ .

** **دوران الأرض** : وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ الأعراف : ٥٤ ، وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ النمل : ٨٨ .

** **وفى عالم النبات** : قوله تعالى ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ الحجر : ٢٢ .

** **وفى عالم النحل** : قوله تعالى ﴿ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ النحل : ٦٩ .

** **وفى عالم العناصر** : تحدث القرآن عن الذرة وعن انقسامها ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ ﴾ سبأ : ٣ .

ولاشك أن الإعجازات العلمية والتى أثبتها العلم الحديث والاكتشافات المعاصرة من أكبر الأدلة على الإعجاز القرآنى الذى لا يمكن معه بحال أن يكون من صنع البشر .

ولهذا كله فقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة تلوى الأعناق ، وتضطرنا إلى التسليم ، كما لم يشأ سبحانه أن تكون معجزة الإسلام الكبرى معجزة حسية تصير بعد وقوعها خبرًا بعد عين .

وما ذلك إلا لأن هذا الدين عام لكل الزمان وكل المكان ، وكل البشر ، ولذلك وبعد أربعة عشر قرنا من الزمان لازالت البشرية تقول كما قال الأوائل : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه .

وذلك لأن هذا الكتاب المعجز لا تنفض بكارته ، ولا يخلق من كثرة الرد ، وسيظل هذا الكتاب يمد كل جيل بما يحتاجه من إعجاز لأنه (تنزيل من حكيم حميد) .

* * *

بشائر النبوة الخاتمة عند الأمم السابقة

قد ذكر لنا القرآن الكريم أن محمدًا وأمته لم يخل كتاب من ذكرهم ، وأن الأنبياء السابقين قد بشروا به أممهم . وذلك بناءً على ما أخذ الله تعالى من الأنبياء من عهود ومواثيق لئن بعث محمد فى حياتهم أن يسارعوا إلى الإيمان به وتصديقه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ آل عمران : ٨١ .

ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان فى ضمير الأنبياء منذ آدم عليه السلام مرورًا بابراهيم الذى كان من دعائه وهو يرفع قواعد البيت : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ البقرة : ١٢٩ .

وموسى الذى ذكر الله له فى التوراة أن الرحمة الإلهية ستكون من نصيب أولئك الذين يؤمنون به ويتبعونه كما قال تعالى ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . . ﴾ الأعراف : ١٥٦ .

وانتهاء بروح الله عيسى ابن مريم الذى ذكَّر أمته بأن من أهم مهماته هى البشارة والتقدمة لقدوم السيد العظيم محمد بن عبد الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ الصف : ٦ .

وقد أوجز لنا رسول الله ﷺ سيرته مع الأنبياء قبله ، وذلك فى الحديث الذى يرويه العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ قال : (إنى عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأخبركم بأول أمرى ، دعوة ابراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى ، وقد خرج لها نور أضاء لها منه قصور الشام) .

وفى رواية أخرى : (أنا دعوة أبى ابراهيم ونبوءة أخى موسى ، وأنه رأت أمى حين وضعتنى كأن نورا خرج منها ، فأضاء لها أعناق الإبل ببصرى) .

لهذا فإن الأحبار ورجال الدين عامة كانوا يعرفون النبى لما يجدون من مطابقة الأوصاف والعلامات لرسول الله ﷺ ، ولا يشكون فى ذلك ولم يمنع كثير منهم من الإيمان إلاَّ الحسد والكبر . قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ البقرة : ١٤٦ .

ولما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن سلام – الحبر اليهودى الذى أسلم – (والذى بعثك بالحق نبيا إن معرفتنا بك أشد من معرفتنا لأبنائنا) .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ البقرة : ٨٩ .

ولقد ضرب الله فى التوراة والإنجيل مثلين للرسول محمد ﷺ ولأصحابه حين قال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح : ٢٩ .

ومن النصوص التى تشير إلى رسولنا محمد ﷺ والموجودة فى التوراة حتى بعد تحريفها .

قال الله لموسى (اقيم لهم – أى لبنى اسرائيل – نبيًا من وسط أخوتهم مثلك، واجعل كلامى فى فمه، فيكلمهم بكل ماأوصيه به ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع كلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه) .

وهى واضحة فى أنها بشارة بالرسول محمد لأن أخوة بنى اسرائيل هم أبناء اسماعيل ، وليس بعد اسماعيل نبى إلا محمد بن عبد الله ﷺ .

وفى سفر التثنية : (أقبل الله من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتجلى من جبل فاران) وسيناء هى الموضع الذى كلم الله فيه موسى ، وسعير هى الموضع أوحى الله فيه لعيسى ، وفاران هى جبال مكة حيث أوحى الله لمحمد ﷺ . وهذه الأماكن هى المشار إليها بقول الحق سبحانه : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ ﴾ التين : ١ ، ٢ ، ٣ .

وفى انجيل يوحنا . إصحاح (١٤) عدد (١٥) : (إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد) وفى نسخة أخرى فيعطيكم (باركليتوس) والمعنى الحرفى لكلمة (باركليتوس) فى اللغة اليونانية كثير الحمد أى أحمد ، وهو اسم من أسماء الرسول .

وفى انجيل متى اصحاح (٢١) عدد (٤٢) : (قال لهم يسوع : الحجر الذى رفضه البناءون هو ذا قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ، كان هذا هو عجيب فى أعيننا) . وهذا الحجر إشارة إلى رسول الله الذى قال : (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له . ويقولون : هلا وضعت تلك اللبنة . فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين) .

❁ ❁ ❁

أنواع المعجزات لرسول الله ﷺ

فيما يتعلق بالأمور الخارقة للعادة والتى وقعت لرسول الله محمد ﷺ فمن المعلوم أنه ما من نبى أعطى معجزة إلا ظهرعلى يد الرسول مثلها وأعظم منها .

ولقد قسم العلماء معجزات النبى إلى قسمين معجزات حسية ، ومعجزات معنوية . وجعلوا القرآن الكريم من القسم المعنوى .

وبعض العلماء قسم المعجزات إلى ثلاثة أقسام :

أمور ثابتة فى ذاته ، وأمور متعلقة بصفاته ، وأمور خارجة عنهما .

ويمكن لنا من خلال قراءتنا للسيرة النبوة العطرة أن نقسم دلائل نبوة النبى ﷺ إلى مايلى :

١ – شهادة الأجرام السماوية مثل حاثة انشقاق القمر . وهذه معجزة متواترة نص عليها الكتاب العزيز قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ القمر : ١ .

٢ – شهادة عالم الحيوان مثل شكاية النوق أهلها . فقد روى أن بعيرًا اعترض الطريق فسأل الرسول : ثم أقبل البعير على رسول الله فكلم النبى وشكى إليه قلة العلف وكثرة العمل .

وشهادة الذئب حين أخذ شاة وقال للرعاة أتعاتبونى على أخذى

شاة وهذا مُحمد يدعوكم إلى ربكم فلا تجيبونه .

وشهادة الضب حين ناداه النبى فقال : لبيك يازين الرجال . فقال من أنا . قال : أنت رسول الله حقًا أفلح من صدقك وخاب من كذبك .

وشهادة الغزال حين نادت على رسول وقالت : يارسول الله قد اصطادنى هذا ولى خشفان (وليدان) وراء الجبل . أفتأذن لى أن أرضعهما وأعود . قال أوتفعلين ، قالت نعم فأطلقها رسول الله ثم ذهبت وعادت فاستأذن الرسول الأعرابى أن يطلقها ففعل فجعلت تعدو نحو أبنائها وهى تقول أشهد أنك رسول الله .

وإخبار الشاة المسمومة لرسول الله بأنها مسمومة . . إلخ .

٣ – شهادة عالم النبات ، وذلك مثل (حنين الجذع لرسول الله بصوت سمعه الحاضرون) .

والشجرة التى انحنت على رسول الله وقال النبى (إنها استأذنت ربها أن تسلم علىَّ) .

وما روى (أن رسول الله أخذ بزمام شجرتين ليتوارى بهما حتى يقضى حاجته) ، ومن هذا إخباره عن (الحبة السوداء وأن فيها شفاء من كل داء) .

٤ – شهادة عالم الجمادات . وذلك مثل ماحدث من تسبيح

الحصى فى كف رسول الله بصوت سمعه الحاضرون .

وما روى عنه من قوله (أنى لأعرف حجرًا ما مررت عليه إلا وسلم علىَّ بالنبوة) ، وقوله (أثبت أحد فإن فوقك نبى وصديق وشهيدان) ، والتراب الذى رماه نحو العدو فكان النصر) ، والتراب الذى وضعه على من تربص به ليلة الهجرة فألقى الله عليهم النوم) .

نثر التراب على رؤس الحسد ∴ وسرى وقد وقفوا إليه بالمرصد

قولوا لأعمى القلب مغلول اليد ∴ أنف الشقى ببعض أحمد مرغم

٥ – شهادة عالم الملائكة ، وهى كثيرة منها ماكان يحدث من جبريل نحو رسول الله مثل كونه حال بين رسول الله وبين زوجة أبى لهب حتى أنها رأت أبا بكر وهو مع رسول الله دون أن ترى رسول الله فقال النبى ذاك أخى جبريل حال بينى وبينها .

٦ – شهادة عالم الجن . حيث قالوا : (إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى) وقالوا (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد . .) .

٧ – اختراقه عالم الغيوب الماضية منها والمستقبلة والآنية التى لم يطلع عليها أحد .

أما الماضية فمثل إخباره عن يوشع بن نون وكيف أنه خاطب

الشمس ، وكذا كل أمر غيبى فى جهة الماضى ورد فى القرآن الكريم مثل عاد وثمود وتفاصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة والتى قال الله عقب ذكرها (وما كنت) .

والمستقبلة مثل (الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكا عضودا) (ويا علىّ يهلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال) ، (وستفتح عليكم القسطنطينية) ، (وصنفان من أهل النار لم أراهما . رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها وجوه النار وأدبارهم ، ونساء كاسيات عاريات مائلات جميلات رؤسيهن كأسنمة البخت) وقوله ﷺ (تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها . .) وما ورد فى القرآن أيضا من قوله : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ القمر : ٤٥ ، ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ الروم : ٢ ، ٣ .

وأما ما أخبر به فى زمانه ولم يطلع عليه الناس فمثل (أخباره لعمه العباس ماحدث بينه وبين زوجته أم الفضل بمكة وهو خارج للحرب) وإخباره عما يجول فى خاطر سلمان الفارسى قبل إسلامه ، وقوله لبلال حين سأل عن الودى هل يوجب الغسل ، (لا غسل إلا من منى ولو كان السائل عليا) .

ومنه أيضا ماجاء فى القرآن : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ المجادلة : ٨ ، وقوله : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ

إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ البقرة : ١٤ ، وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ محمد : ١٦ .

٨ – شهادة عالم الحشرات ، وهو نوع من الإعجاز يوضع فى رصيد رسول الله ﷺ مثل قوله :(إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فاغمسوه فيها فإن فى أحد جناحيه داء والآخر دواء) ، وقد أثبت العلم الحديث هذا الأمر . وما ورد عن النحل وأن العسل فيه شفاء لأمراض كثيرة . وما ورد من أمر العنكبوت فى رحلة الهجرة حين سد باب الغار .

٩ – شهادة عالم الأنبياء قبله وإخبارهم به وبصفته : فقد أخبر عنه الخليل ودعا الله أن يبعث فى العرب نبيًا من أنفسهم فاستجاب الله له ، كما ورد فى القرآن والتوراة .

وأخبر موسى قومه عن صفة النبى الأمى . كما ورد فى القرآن والتوراة وبشارة عيسى برسول الإسلام محمد ﷺ واضحة فى القرآن والإنجيل .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ آل عمران : ٨١ .

يقول الشاعر :

مامضت فترة من الأمم ∴ إلا بشرت بك قومها الأنبياء

١٠ – شهادات القرآن الكريم . والقرآن الكريم أعظم معجزة لرسول الله وهو المعجزة الدائمة والخالدة التى لم تنته بموت الرسول بل هى قائمة وشاهدة على صدقه .

فالإعجاز العلمى والطبى والنفسى والجنائى والاجتماعى والبلاغى والبيانى والهندسى والكونى . . . غلخ كل ذلك يوضع فى رصيد رسول الله ﷺ ويعتبر من معجزاته ﷺ .

١١ – شهادة الجانب الطبى لرسول الله ﷺ حيث ورد عن رسول الله ﷺ أنه شفى بإذن الله كثيرا من المرضى فى زمانه مثل الصرع والعمى ، ورد العين لأحد أصحابه ، والرمد كما حدث مع على ، ولدغ الثعبان كما حدث مع أبى بكر فى بعض الروايات ز

وبهذه المعجزات يظهر لنا أن محمداً ﷺ رسول بل هو سيد الرسل والأنبياء . وقد شهد بذلك رب الأرض والسماء ، ونطقت بذلك الصخرة الصماء ، وأقر بذلك الحيوانات العجماء ، وهتفت بذلك الأشجار فى الصحراء ، وأشرقت الأرض بنور ربها إشراق الشمس فى كبد السماء ، فصياح الخصماء نباح الكلاب فى الليلة القمراء كما قال بذلك بعض العلماء .

الفصل الحادى عشر

علامات الساعة

** أولاً : العلامات الاقترابية .

** ثانيًا : العلامات الاقترانية .



علامات الساعة

إذا كان أمر الساعة قد خفى على البشر مـــن جهـــة التحديـــد الدقيق لقيامها ، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية قد ذكرت أمارات ودلائل تدل على اقترابها .

والصحابة الكريم كانوا يهتمون كثيرًا بيوم القيامة ويسألون النبى عن تحديد موعدها فيأتى القرآن ليجيبهم مبينًا أن علم الساعة مقصور على الحق سبحانه وتعالى : يقول الله تعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [1] ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ [2] قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ الأعراف : ١٨٧ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [3] طه : ١٥ .

وكان النبى ﷺ يلفت نظر الصحابة إلى ما ينبغى . فقد جاءه سائل وقال : متى الساعة ؟ فقال : وما أعددت لها .

---

(١) يعنى خفى أمرها فى السماوات والأرض فلا يعلمها أحد إلا الله .

(٢) مهتم بمعرفة توقيتها .

(٣) يعنى أكاد أزيل خفاءها . أى أكاد أظهرها . تقول العرب أخفاه أى أزال خفـــاءه . مثل اصرخه أى أزال صراخه .

ومع ذلك فإن النبي ﷺ قد ذكر – وكذا القرآن الكريم – إشارات وعلامات تدل على اقترابها .

وقد قسم العلماء هذه العلامات إلى :

١ – علامات صغرى : وهذه بدورها تنقسم إلى :

أ – علامات ظهرت ومضت .

ب – علامات نخوض فيها الآن ونعيش ملامحها .

ج – علامات لم تظهر بعد .

٢ – علامات كبرى : ونحن نذكر بشئ من التفصيل هذه العلامات .

ونقول : إن الناظر فى أمارات الساعة يلاحظ عليها أنها يمكن تقسيمها إلى علامات اقترابية ؛ وعلامات اقترانية .

أولاً : العلامات الاقترابية

وهى العلامات الدالة على اقتراب الساعة ويمكن تقسيمها إلى علامات ماضية ، وعلامات حالية ، وعلامات مستقبلة .

١ – **العلامات الماضية** : وهى التى مرَّت وإن دلت على قرب قيام الساعة من ذلك :

** بعثة النبى ﷺ فقد قال النبى : (بعثت أنا والساعة

كهاتين) وأشار بأصبعيه لسبابة والوسطى .

** انشقاق القمر . قال تعالى : ﴿ ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ .

** موت النبى ﷺ . ففى الحديث (وموتى دليل على الساعة) .

** ومنها قتال على ومعاوية فى معركة صفين . فقد أخبر النبى ﷺ عن اقتتال فئتين عظيمتين – دعواهما واحدة .

٢ – أما العلامات الحالية فهى كثيرة منها :

** كثرة الهرج أى القتل .

** كثرة شرب الخمور .

** إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله .

** تداعى الأمم على أمة الإسلام مثل تداعى الأكلة على قصعتها .

** انتشار الجهل .

** أن تلد الأمة ربتها .

** أن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان .

** إذا كانت الزكاة مغرما .

** إذا ساد القبيلة فسَّاقها .

** إذا كان زعيم القوم أرذلهم .

** إرتفاع الأصوات فى المساجد .

٣ – أما العلامات الصغرى التى لم تظهر فمنها :

** رؤية الزناة على قارعة الطريق يتسافدان تسافد الحمير .

** ارتفاع الأمانة .

** انحسار الفرات عن جبل من ذهب .

** معركة بين المسلمين واليهود ونطق الشجر والحجر قائلين : يامسلم ياعبد الله هذا يهودى ورائى تعال فاقتله .

** معركة بين المسلمين والروم فى دابق بالشام .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العلامات ليست بالضرورة تدل على فساد الأمة ، وإنما بعضها يدل على الفساد والخيبة وبعضها الآخر إشارة إلى قرب الساعة ، ثم هى جميعا تدل على نبوة النبى ﷺ لأنها من باب الاخبار عن الأمور الغيبية .

ثانيًا : علامات اقترانية

وهى العلامات الكبرى التى تكون الساعة عقيبها ، وقد حددها الرسول ﷺ بعشر علامات وإن كان القرآن لم يشر إلا إلى خمس منها . من هذه العلامات :

١ – **المسيح الدجال** . وهو من أعظم الفتن التى تواجه المسلم لذلك كان رسول الله يستعيذ بالله من شر فتنة المسيح الدجال .

وهو إما أن ينطق بالخاء (مسيخ) لأن إحدى عينيه ممسوخة ، وإما بالحاء لأنه إما يمسح الأرض طولاً وعرضا ، أو لمسح عينه ، أو لاشتباهه بمسيح الهدى عيسى ابن مريم ، فى كونه يحيى ويميت ، ولهذا قُيد وصفه بالدجَّال .

وكان الرسول يشدد فى التنبيه على الأمة حتى لا تفتن به . وقال:إن يظهر وأنا حى فأنا حجيجه ، وإن يظهر بعدى فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتى عليكم .

ومن أوصافه . أنه أعور العين اليمنى ، وأن عينه اليسرى جاحظة . وأنه يركب دابة تجوب الأرض شرقًا وغربًا ، وسيخرج من الكوفة أو أصبهان ، وأنه لن يمكن من دخول مكة والمدينة ، وسيمر بالأرض الخربة فتخرج كنوزها ، وسيعطى القدرة على الأحياء والإماتة ، وستكون نهايته على يد المسيح عيسى بن مريم .

وسواء كانت هذه الأوصاف لإنسان حقيقى له هذه الصفات ،

أم كانت كناية عن فتنة كبرى تحدث لأمة الإسلام بسبب الاعتماد على العلم المادى الذى فتن كثيرا من أهل الغرب والشرق . والذى يعتبر أعور العين وذلك لأنه لا يرى إلا بعين المادة ، وأما العين الروحانية الأخروية فهى طافية وممسوحة .

وقد قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ الروم : ٧ .

فلا شك أنها علامة من علامات الساعة الكبرى ودليل على صدق النبى ﷺ التى ننتظر حدوثها لأن العلم لم يبلغ مداه بعد . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ . . .﴾ يونس : ٢٤ .

٢ – **خروج الدابة** : فقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ النمل : ٨٢ .

وقد ذكرت الأحاديث أن الدابة ستخرج من صخرة بجوار الكعبة ، وتكلم الناس ضُحا بين الركن والمقام . وهى آية كبرى . ولا التفات لمن قال:إنها رمز وإشارة إلى الأقمار الصناعية ، أو المذياع . . . إلخ . لأن الآية تشير إلى أنها ستعظ الناس

وتذكرهم . بخلاف الأقمار .

٣ - **خروج يأجوج ومأجوج** : وقد اختلف العلماء حولهم . هل يأجوج ومأجوج اسم علم على قبيلتين معينتين ، أم هما وصفان لنوع من البشر يمكن أن يظهرا ، ويختفيا .؟

والقرآن الكريم أشار إلى وجودهما زمن العبد الصالح ذى القرنين ، الذى صنع سدًا منيعًا لايمكن اجتيازه إلا قرب قيام الساعة .

ومن العلماء من زعم أنهم قوم من الترك ، وقد خاب ظنهم بعدما حمل الأتراك مشعل الحضارة الإسلامية ردحًا من الزمن .

والأقرب إلى الصواب - والله أعلم - أن هذين وصفان لفئتين يظهران فى آخر الزمان ، كما ظهر أمثالهما زمن ذى القرنين . وسيكونان سببًا فى فساد كبير يحدث للعالم خاصة وقد أشار البعض إلى أن يأجوج ومأجوج من الفعل أجَّ : بمعنى أشعل . فهم سيشعلون الحروب والفتن وهم من كل حدب وصوب يسرعون إلىَ فرائسهم . وسوف يتعالون ويتكبرون لدرجة أنهم يظنون أنهم يملكون السماء بعدما يظنون استيلاءهم على الأرض .

مع ملاحظة أن أمريكا ومعها الصهيونية أقاموا حرب كواكب ، وأرسلوا السفن الفضائية التى احترق بعضها بعد إطلاقها أو حتى بعد انتهاء الرحلة . وقد صدق الله القائل : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ

ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ الرحمن : ٣٣ .

٤ – **نزول عيسى بن مريم** : وهو علم من أعلام الساعة حيث قال الله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ الزخرف : ٦١ .

وقال : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ النساء : ١٥٩ .

وقد أخبرنا النبى ﷺ بأن عيسى عليه السلام سينزل عدلاً مقسطًا ، وسيقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال . وسيكون نزوله عند منارة دمشق ، بين ملكين يقطر شعره ماءً . وأنه سيتعقب الدجال حتى يقتله ، وأنه سيمكث فى الأرض مدة يسيرة ، ثم سيموت على ملة الإسلام .

٥ – **الدخان** : قال تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ الدخان : ١٠ ، ١١ .

وفى السنة النبوية . أن دخانا سيأتى من السماء ليملأ الأرض لكنه سيأخذ المسلم أخذًا رفيقًا لا يضره بخلاف الكافر الذى سيدخل من فمه وأنفه ، ويخرج من أدباره .

لكن لا يعرف سبب هذا الدخان هل لاحتراق مجموعة من النيازك جملة واحدة . هذا أمر لم يرد فيه نص لذا وجب السكوت .

٦ – **طلوع الشمس من مغربها** : وقد تواترت أحاديث كثيرة على أن الشمس سوف يتغير مسارها وتشرق من مغربها . وهى ألصق العلامات بالقيامة ، ولذا فإن الرسول ﷺ قد أخبر بأنه (لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن أمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) .

والعلم الحديث قد أثبت بأن الشمس ونظرًا لفقدانها نحو ٢٥٠ مليون طن من كتلتها كل دقيقة وهو ما يساوى طاقة تعادل ماينطلق من تفجير ألف مليون قنبلة هيدروجينية فى الثانية يمكن بعد مدة من الزمن أن تتوقف ثم تعود عكس ماكانت عليه . وسواء صحت هذه المعلومات أم لا فإن الثابت من النصوص الدينية أنها سوف تشرق من مغربها .

ولا التفات لما قاله(لويس فرقان)زعيم جماعة أمة الإسلام فى أمريكا من أن معنى شروق الشمس من المغرب . أن شمس الإسلام سوف تشرق من الغرب (أمريكا وأوربا) .

٧ ، ٨ ، ٩ – ثلاث خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب .

١٠ – نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر .

تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا .

وهذه النار سوف تسوقهم إلى حيث أول مناظر للآخرة ، وهى النفخة الأولى الذى عندها يموت كل حى .

ثم تبدل الأرض التى نحن عليها إلى أرض أخرى صعيدًا زلقا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا . ثم تكون النفخة الثانية والتى عندها يقوم كل كائن ويبعث من فى القبور ، ويكون الرسول أول من يبعث فينظر فيجد كليم الله موسى ممسك بقوائم العرش ، فلا يدرى النبى أفاق قبله أم جوزى بنفخة الطور . ثم يكون الحساب .

* * *

الفصل الثانى عشر

اليوم الآخر

** أهمية الإيمان به .

** عذاب القبر ونعيمه .

** المعاد .

** الحساب .

** الصراط .

** الميزان .

** الشفاعة .

** الجنة والنار .

اليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان وجزء من أجزاء العقيدة بل هو العنصر الهام الذى يلى الإيمان بالله مباشرة .

لأن الإيمان بالله يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذى صــدر عنه الكون ، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الــذى ينتهى إليه الوجود .

وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكــن للإنــسان أن يحدد هدفه ، ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة فإن حياته سوف تبقــى بلا هدف ولا غاية ، وحينئذ يفقد الإنسان سموه الروحى وفــضائله العليا ، ويعيش كالأنعام .

ويبدأ اليوم الآخر بفناء هذا العالم حيث يموت كل حى وتتبدل الأرض غير الأرض والسماوات . كما قرر القرآن الكريم .

وليس فيما قرره القرآن أمر محال .

ذلك أنه قد ثبت علميا أن هذا الكون كما تطور مــن الــزمن القديم إلى ما انتهى إليه فى وضعه القائم فإنه يسير سيرًا حتميًا إلى الفناء والزوال .

وهذا الفناء يسميه علماء الطبيعة (يوم الإنفجار العظيم) .

ولكن ما لايستطيع علماء الطبيعة إثباته هــو مــا بعــد هــذا الإنفجار من بعث وحشر وحساب . . الخ .

وهذه كلها أمور سمعية تؤخذ من الأخبار الواردة عن طريـــق الوحى هذا إلى جانب أنها ليست مستحيلة .

ولقد اهتمت الأديان عامة والإسلام خاصة بتقرير هذا اليـــوم حتى يستعد الناس له كى لاتكون لهم حجة ومـــن مظـــاهر هـــذا الاهتمام :

١ – أنه ربط الإيمان به بالإيمان بالله . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ البقرة : ٦٢ ، ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ البقرة : ١٧٧ .

٢ – جعله أحد أركان الإيمان الأساسية . كما قال رســـول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام ما الإيمان ؟ . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . [1]

٣ – كثرة ذكر القرآن الكريم له فلا تكاد تجد سورة من سوره إلا وتتحدث عنه أما تصريحا أو تلميحًا محاولة تقريبه إلى الأذهان تارة بالدليل وتارة بضرب الأمثلة .

٤ – أن القرآن الكريم قد وضع لهذا اليوم أسماء كثيرة كـــل اسم منها يدل على معنى ماسيحدث فى هذا اليوم . وهـــى كثيـــرة منها :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

١ – يوم البعث . كما قال : ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ الروم : ٥٦

٢ – يوم القيامة : كما قال: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ ﴾ القيامة : ١ .

٣ – يوم الساعة : كما قال : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ القمر : ١ .

٤ – يوم الآخرة : كما قال : ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ ﴾ الأعلى : ١٧ .

٥ – يوم الدين : كما قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ الفاتحة : ٤ .

٦ – يوم الحساب : كما قال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧ ﴾ غافر : ٢٧ .

٧ – يوم التناد : كما قال : ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ ﴾ غافر : ٣٢ .

٨ – يوم الجمع : كما قال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ التغابن : ٩ .

٩ – يوم التغابن : كما قال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ التغابن : ٩ .

١٠ – يوم الخلود : كما قال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ق : ٣٤ .

١١ – يوم الخروج : كما قال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ق : ٤٢

١٢ – يوم الحسرة : كما قال : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ مريم : ٣٩ .

١٣ – يوم الآزفة : كما قال : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ النجم : ٥٧ ، ٥٨ .

١٤ – يوم الطامة : كما قال : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ النازعات : ٣٤ .

١٥ – يوم الصاخة : كما قال : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾ عبس : ٣٣ .

١٦ – يوم الحاقة : كما قال : ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ ﴾ الحاقة : ١ – ٣ .

١٧ – يوم الغاشية : كما قال : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾ الغاشية : ١ .

١٨ – يوم الواقعة : كما قال : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ الواقعة : ١ .

١٩ – يوم الزلزلة : كما قال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ ﴾ الزلزلة : ١ .

هذا عدا الأسماء التى استخلصها العلماء من آيات القرآن ومن أحاديث النبى ﷺ . كيوم الفاضحة ، والفرار ، والجزاء ، والندامة ، والبروز ، والصيحة ، والمساءلة ، والمناقشة ، والنشور ، والخزى والرجفة ، والفزع ، والسكره ، والمأوى ، والقلق ، والانشقاق . [١]

هذا أول مرحلة من مراحل يوم القيامة هو المعـــاد غيـــر أن مرحلة البرزخ تعد مقدمة لذلك اليوم . لذلك سوف نتحدث بإيجـــاز عن عذاب القبر ونعيمه ثم نتحدث بالتفصيل عـــن مراحـــل اليـــوم الآخر .

۞ ۞ ۞

(١) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٤٧٠ .

عذاب القبر ونعيمه

لقد كانت مسألة عذاب القبر ونعيمه محل اتفاق بين مختلف الطوائف الإسلامية ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا أحد المعتزلة .

ولقد أخطأ الغزالى حين قرر أن المعتزلة جميعا تنكر عذاب القبر ونعيمه ، وهذا كلام يعوزه الدقة فأن الناظر فى كتب القاضى عبد الجبار – هو أحد مؤرخى المعتزلة – يرى أن القوم لم ينكروا عذاب القبر ولا نعيمه .

والكلام فى هذه المسألة يقع فى أربعة مواضع :

أحدهما : فى ثبوته .

والثانى : فى كيفية ثبوته .

والثالث : شبه المنكرين والرد عليها .

والرابع : موقف بعض العلمانيين من عذاب القبر ونعيمه .

أولاً : ثبوته :

إن عذاب القبر ونعيمه ورد بشأنهما بعض النصوص القرآنية وكذا الأحاديث النبوية الظاهرة فى هذا الشأن والتى لا تحتمل التأويل .

والأدلة من القرآن كثيرة ولكنها ليست ظاهرة الدلالة إلا عن طريق تأويلها ، وتفسيرها – حيث لم يرد نص صريح يقول :

إن هناك عذاب للقبر أو نعيم له .

١ – من هذه النصوص قوله تعالى فى آل فرعون : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ غافر : ٤٦ .

فهذه الآية أوضح فى الدلالة من غيرها ، ولا التفات لمن قال أنها خاصة بآل فرعون .

٢ – وقوله تعالى فى حق قوم نوح : ﴿ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ نوح : ٢٥ . والفاء للتعقيب .

٣ – وقوله تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ السجدة : ٢١ .

قال ابن عباس العذاب الأدنى : عذاب القبر .

٤ – وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ الأنعام : ٩٣ . أي يوم خروج الروح .

٥ – وقوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ التوبة : ١٠١ .

قال قتادة : المرة الأولى فى الدنيا ، والثانية فى القبر .

أما الأحاديث فقد تواترت عن النبى أحاديث كثيرة فـى أثبـات عذاب القبر ونعيمه ، وسوف نذكر الأحاديث الواردة فى الـصحيحين – البخارى ومسلم حتى لايكون هناك عذر لمعتذر منها :

١ – روى الإمام مسلم عن عائشة أنها سـمعت رسـول الله ﷺ : " يستعيذ من عذاب القبر " .

٢ – روى الإمام البخارى فى صحيحه عن عائـشة . أنهـا قالت : يارسول الله إن عجوزين من عجز المدينـة دخلتـا علـى فزعمتا أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم . فقال : " صدقتا إنهـم يعذبون عذابا تسمعه البهائم " قالت : فما رأيته بعـد فـى صـلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر .

٣ – روى البخارى عن ابن عبـاس رضـى الله عنهمـا : أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال : " إنهما ليعذبان ومـا يعـذبان فـى كبير . . . " .

٤ – وروى البخارى عن أبى أيوب الأنصارى قال : خـرج النبى وقد وجبت الشمس (غربت) فسمع صوتا فقـال : " يهـود تعذب فى قبورها " .

٥ – روى مسلم عن زيد بن ثابت أن رسـول الله ﷺ قـال : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا لـدعوت الله أن

يسمعكم عذاب القبر الذى أسمع منه " .

هذا وغيره من الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ يؤكد أن عذاب القبر ونعيمه أمر ثابت .

*** **أما الأدلة العقلية** :

فإن العقل لايحيل عذاب خاصة لمن أقر بالعذاب وشمول قدرة الله ثم إن المكلفين متى علموا أنهم إن أقدموا على المعاصى عذبوا فى القبر ثم بعد ذلك فى نار جهنم كان ذلك صارفا لهم عن المعاصى ، وما كان هذا سبيله وكان فى مقدوره فلا بد من أن يفعله .

*** **كيفيته** :

فقد وردت أحاديث عن النبى ﷺ : " يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه والمبعوث فيه " .

فالميت على هذا عنده نوع من الحياة حتى يستطيع أن يجيب وعنده عقل حتى يستطيع فهم ما ألقى إليه من أسئلة .

وفى العذاب والنعيم : لابد وأن يحييهم الله أيضا لأن تعذيب الجماد محال وكما لابد من الإحياء ليصح التعذيب فلابد أن يخلق الله فيهم العقل ليحسن التعذيب .

أما كيفية التعذيب والتنعيم . فإن ذلك يختلف باختلاف

أصناف الناس . والعذاب والنعيم كما قال الجمهور يقع على الروح والجسد معا ولا يمنع ذلك كون الجسد تتفرق أجزاؤه لأن الله قـادر على إعادة الأجزاء وجمعها .

وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمـور الملكـوت والأحاديث تشير إلى ماذهب إليه الجمهور كقولـه ﷺ : " تختلـف أضلاعه لضمة القبر " . وقولـه : " يـسمع صـوته إذا ضـربه بالمطراق " . وقوله : " فيقعدانه " . ، " ويضرب بين أذنيه " وكـل ذلك من صفات الأجساد .

إلا ان هذا كله قد يكون محجوبا عنا لأنه عالم آخر خاص وقد قال الرسول ﷺ : " فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين " .

وما يهمنا هو أن نعتقد أن القبر أما روضة من رياض الجنـة أو حفرة من حفر النار – فقد يكون العذاب بمطرقة من حديد كمـا ذكر البخارى وقد يكون ضمه للقبر . . . الخ .

شبهة المنكرين والرد عليها :

قال المنكرون : لو كان لعذاب القبر ونعيمه أصل لكان يجب فى النباش أن يرى العقوبة أو المثوبة للمعاقب والمثـاب ، فكـان يشاهد – مثلا – آثار الضرب وغيره – مما يـدل علـى أن ذلـك **مما لا أصل له .**

ومما يؤكد هذا الكلام أنه لو كان له أصل لكـان يجـب فـى

المصلوب والميت الذى لم يدفن أن يسمع أنينه ويشاهد اضطرابه ؟

الجواب على ذلك : يجوز أن لا يعذبه الله فى وقت إطلاع الناس عليه أو يعذبه – وهو الأقوى – على وجه يستتر عنهم لوجه من المصلحة ، كما قال النبى ﷺ : " لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع " . رواه البخارى .

ثم إن أحكام عالم البرزخ تختلف عن عالم الدنيا التى نحياها .

ثم إن الرسول ﷺ أسمعه الله هذه الأمور وهل هناك أصدق من رسول الله ﷺ ؟

وأما موقف بعض العلمانيين من عذاب القبر ونعيمه :

فإن بعض المتحللين الأباحيين يحاولون إنكار عذاب القبر مدعين أنها نوع من الخرافات التى يجب أن تنزه عقولنا عنها .

وقد تعلل هؤلاء بقولهم أننا لم نر أحدًا يعذب فى قبره .

وهى نفس الشبهة التى أثارها المنكرون من قبل ، وعدم الوجدان أن لا يدل على عدم لوجود ، ثم إننا نكون بجانب نائم وهو يعذب أو ينعم ومع ذلك لا ترى هذا التعذيب والتنعيم .

ولهم شبهة احتجاج أيضا بأن الله رحيم كما قال أحدهم على صفحات الجرائد .

ونحن نقول له إذا عليك أن تنكر أن هناك نارًا فى الآخرة .

وهل رحمة الله تعنى إلا يعاقب المسيئ ، فلماذا إذا يعتقلـــون الجماعات الإرهابية ويقتلونهم ويعذبون ذويهم .

فلابد إذا من الثواب والعقاب ، ولابد أيضا من الاعتقاد بنعيم القبر وعذابه .

❋ ❋ ❋

سؤال منكر ونكير

وهو حق والإيمان به واجب لورود الشرع به ثم إنــه ممكــن ولا يحيله العقل ولا يستدعى هذا السؤال مــن الملكــين إلا تفهمــا بصوت أو بغير صوت .

كما لا يستدعى من المسئول إلا فهما والفهم يستدعى الحياه .

والإنسان لايفهم بجميع بدنه بل بجزء وإحياء هذا الجزء ممكن مقدور عليه .

الدليل :

ماروى عن رسول الله ﷺ مثل قوله : " فيــرد إلــى الأرض وتعاد روحه فى جسده قال . فإنه يسمع خفق نعــال أصــحابه إذا ولو عنه مدبرين ، فيأتيه ملكان . . . فيقولون لــه : مــن ربــك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ . . . " الحديث رواه البخارى ومسلم .

شبهة :

إنا نرى الميت ولا نشاهد منكرا ونكيرا ولا نسمع صــوتهما فى السؤال ولا صوت الميت فى الجواب – وهذا يدل علــى عــدم وقوعه .

الجواب : لو صح هذا يلزم أن تنكــروا مــشاهدة النبــى ﷺ لجبريل عليه السلام وســماعه كلامــه وســماع جبريــل جوابــه **ولا يستطيع مصدق الشرع أن ينكر ذلك إذ لــيس فيــه إلا أن الله**

تعالى خلق له سماعا لذلك الصوت ومشاهدة لذلك الشخص ، ولـــم يخلق للحاضرين من الصحابة حتى ولا عائشة التى تكون حاضرة وقت نزول الوحى .

فأنكار هذا بهذه الصورة مصدره عدم التصديق إلا بما هو محسوس مشاهد وهى نفس ما طلبه بنو إسرائيل حين قالوا لموسى عليه السلام ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ النساء : ١٥٣

وقد قلنا : عدم الوجدان لايدل على عـــدم الوجـــود كمـــا أن مايحدث للنائم . . . إيلاما وتنعيما مايؤكد هذا الأمر . ومن المعلوم أن الإيمان بالغيب هو من أمارات المتقين . مادام هناك نص يؤيـــد ذلك .

✿ ✿ ✿

المعاد

وهو مصدر ، أو مكان – أى مكان العود .

وحقيقة العود : توجه الشئ إلى ماكان عليه .

والمراد بالمعاد : الرجوع إلى الوجود بعد الفناء .

أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرق وإلى الحياة بعد الموت والأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة .

وهو عند الفلاسفة : رجوع الأرواح إلى ماكانت عليه من التجرد عن علاقة البدن واستعمال الألات ، والتبرى عما ابتليت به من الظلمات .

وقد اختلف الناس فى المعاد :

١ – الفلاسفة الطبيعيون (الدهريون) الذين لا يعتد بهم فى المسألة ولا فى الفلسفة .

وقد زعموا أنه لا معاد أصلا ، زعما منهم انه ذلك الهيكل المحسوس بماله من المزاج والقوى والأعراض ، وذلك يفنى بالموت – وزوال الحياة ، ولا يبقى إلا المواد العنصرية المتفرقة ، وأنه لا إعادة للمعدوم .

٢ – ومن هؤلاء من كان فى زمن البعثة النبوية والذين قال عنهم القرآن : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ السجدة : ١٠.

٣ – المحققون من الفلاسفة ، وأهل الأديان اتفقوا على أن المعاد حق ولكنهم اختلفوا فى كيفيته .

أ – ذهب جمهور المسلمين إلى أنه جسمانى فقط وذلك لأن الروح عندهم جسم سارى فى البدن سريان النار فى الفحم والماء فى الزرع .

ب – وذهب الفلاسفة المسلمين إلى أنه روحانى فقط لأن البدن ينعدم بصوره وأعراضه فلا يعاد .

والنفس جوهر مجرد باق لاسبيل إليه للفناء فيعود إلى عالم المجردات بقطع التعلقات .

معنى ذلك : أن كل إنسان – عند الفلاسفة – له معاد خاص به بمجرد إنفصال روحه عن جسده .

ج – وذهب كثير من علماء الإسلام كالغزالى ، والكعبى ، والحليمى ، والقاضى أبى زيد الدبوسى ، وكثير من الصوفية والشيعة والكرامية إلى أن المعاد روحانى وجسمانى معا ، وذلك لأن الروح عندهم جوهر مجرد تعود إلى البدن .

وهذا المذهب يقول به النصارى وفرق التناسخية ، والفرق بين المسلمين والتناسخية فى هذا المذهب :

أن المسلمين : يقولون بحدوث الأرواح وردها إلى الأبدان **لا فى هذا العالم بل فى الآخرة** .

وأما **التناسخية** : فيقولون بقدم الأرواح ثم بردها إلى الأبدان فى هذا العالم ، ثم إنهم مع ذلك ينكرون الآخرة والجنة والنار .

هذا وقد اعتمد المعتزلة على الدليل العقلى لإثبات وجود المعاد بينما أهل السنة على الدليل السمعى .

دليل المعتزلة :

لقد ادعى المعتزلة وجوب حشر الأجساد عقلا فقالوا : يجب على الله ثواب المطيعين وعقاب العاصين وأعواض المستحقين ولا يتأتى ذلك إلا بإعادتهم بأعيانهم فيجب ؛ لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ويمكن الرد على ذلك :

أنه اعتبر الأمر بحسب الحقيقة فالمستحق هو الروح . وإن اعتبر الأمر بحسب الظاهر ، يلزم أن يعاد الأجزاء الكائنة من أول الميلاد إلى الممات ثم إن هذا الدليل مبنى على أصلهم الفاسد فى الوجوب على الله تعالى . وقد قلنا : إن العبد لا يوجب على سيده شيئا .

أدلة أهل السنة على حشر الأجساد :

الأولى عند أهل السنة التمسك بالسمع وتقريره . أن الحشر والإعادة أمر ممكن ، أخبر به الصادق فيكون واقعا .

أما كونا أمرا فلأن الكلام فيما عدم بعد الوجود ، أو تفرق بعد

الاجتماع أو مات بعد الحياة فيكون قابلا لذلك ، ثم إن الله هو الفاعل ، وهو سبحانه قادر على جميع الممكنات عالم بجميع الأشياء ، فلا مجال لقول من قال : ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ السجدة : ١٠ .

وأما أنه أخبر به الصادق . فلما تواتر عن الأنبياء خاصة نبينا محمد ﷺ أنه كان يقول بذلك .

ولما ورد فى القرآن من نصوص لا يحتمل أكثرها التأويل مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ يس : ٧٨ ، ٧٩ .

﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ ﴾ يس : ٥١ .

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الإسراء : ٥١ .

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ ﴾ القيامة : ٣ .

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ فصلت : ٢١ .

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ ﴾ العاديات : ٩ .

وبذلك فإن إثبات الحشر من ضروريات الدين وإنكاره كفر .

فإن قيل : الآيات المشعره بالمعاد الجسمانى ليست أكثر

ولا أظهر من الآيات المعشرة بالتشبيه والجبر والقدر ، ونحو ذلك .

وقد وجب تأويلها قطعا ، فلنصرف هذه أيضا إلى بيان المعاد الروحانى وأحوال سعادة النفوس وشقاوتها بعد مفارقة الأبدان على وجه يفهمه العوام .

فإن الأنبياء مبعوثون إلى كافة الخلائق لإرشادهم إلى سبيل الحق وذلك بالترغيب والترهيب والوعيد والبشارة بما يعتقدونه لذة وكمالا ، والإنذار عما يعتقدونه ألما ونقصانا ، وأكثرهم عوام تقصر عقولهم عن فهم الكمالات الحقيقية واللذات العقلية ، وتقتصر على ماألفوه من اللذات والآلام الحسية فوجب أن تخاطبهم الأنبياء بما هو مثال للمعاد الحقيقى ترغيبا وترهيبا للعوام . (١)

قلنا : إنما يجب التأويل عند تعذر الظاهر ولا تعذر هنا ثم إن ماذكر من حمل كلام الأنبياء ونصوص الكتاب على الإشارة إلى مثال معاد النفس والرعاية لمصلحة العامة ، فيه نسبة الكذب للأنبياء فيما يتعلق بالتبليغ والقصد إلى تضليل أكثر الخلائق وهم العامة . كما أن فيه ترويجا للباطل وإخفاء للحق .

---

(١) المقاصد ج٢ ص ١٥٧ .

شبه القائلين باستحالة بعث الأجساد :

استدل الفلاسفة على أن المعاد الجسمانى مستحيل بقولهم :

١ – لو أكل إنسان إنسانا وصار غذاء له وجزء من بدنـــه ، فالأجزاء المأكولة أما أن تعاد فى بدن الآكل أو فى بدن المأكول .

وأيا ماكان لايكون أحدهما معادا بتمامه . على أنه لا أولويـــة لجعلها جزءًا فى بدن أحدهما دون الآخر ولا سبيل لجعلهـــا جـــزءا من كل منهما .

ثم إذا كان الآكل كافرا والمأكول مؤمنا فيلزم تنعيم الأجـــزاء العاصية أو تعذيب الأجزاء المطيعة .

والجواب : أنا نعنى بالحشر إعادة الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره لا الحاصلة بالتغذية .

فالمعاد من كل من الآكل والمأكول الأجزاء الأصلية الحاصلة من أول الفطرة التى بها يكون إنسانًا .

وقالت المعتزلة يجب على الله حفظها ليـــتمكن مـــن إيـــصال الجزاء إلى مستحقه فإن قالت الفلاسفة : إذا كنتم ستعتمدون علـــى الآيات لإثبات الحشر الجسمانى فلا تقولوا . إن المعاد هو الأجزاء الأصلية ؛ لأن الآيات الواردة فى هذا الشأن تشير إلـــى أن المعـــاد الأصلية وغير الأصلية مثل قوله : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ ﴾ ، وقوله : ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ .

قال المتكلمون ومن الآيات ماهو مسوق لنفس الإعادة – الأجزاء الأصلية مثل قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الروم : ٢٧ .

وقوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الإسراء : ٥١ .

وقد أثبت العلم الحديث أن مجرد وجود خلية واحدة كافية لحمل كل الصفات الوراثية . وهذه الخلية ربما تكون هى المشار إليه فى حديث النبى (بعجب الذنب) . ولهذا فإن المعامل فى الغرب خاصة فى انجلترا بصدد خلق إنسان عن طريق حقن بويضة بخلية حية بعدما نجحوا فى تجاربهم على النعجة (دوللى).

وهذه التجارب إن كتب لها النجاح رغم تعارضها مع أخلاق العلم :

*** لا تتعارض مع كون الله خالق كل شئ . لأن العلماء اقتصر دورهم على نقل خلية حية – الله خالقها وخالق الحياة فيها – إلى بويضة . فالعلماء مجرد وسائط فقط وليسوا خالقين على الحقيقة .

*** إن هذه التجارب تؤكد صدق القضايا العقدية فى الأمور الأخروية ، وإن ذلك يساعد على سهولة التصديق بهذه القضايا خاصة وأن كثيرًا من العلماء قال : إن أحجام الأجسام لا يلزم أن

تكون نفسها التى فى الدنيا . فـالمؤمن يبعـث علـى صـورة آدم (ستون ذراعًا) ، والكافر ضرسة مثل جبل أحد .

٢ – إن الإعادة لا لغرض عبث لا يليق بالحكيم ، أو لغرض عائد على الله نقص يجب تنزيهه عنه ، أو لغرض عائد على العباد أيضا باطل لأنه إما إيصال ألم وهو لا يليق بالحكيم . وإما إيـصال لذة ولا لذه فى الوجود سيما فى عالم الحس فكل مايتصور لذة فإنما هو خلاص من ألم ولا ألم فى العدم أو الموت ، ليكون الخـلاص عنه لذه مقصودة بالإعادة .

والجواب :

* منع لزوم الغرض وقبح الخلو عنه فى فعل الله تعالى .

* ثم منع انحصار الغرض فى إيصال اللذة والألم . إذ يجوز أن يكون نفس إيصال الجزاء إلى من يستحقه غرضا .

* منع كون اللذة دفعا للألم وخلاصا عنه كيف واللذة والألـم من الوجدانيات الى لايشك العاقل فى تحققها .

* منع كون اللذة الأخروية من جنس الدنيوية بحسب الحقيقـة ليلزم كونها دفعا للألم وخلاصا عنه .

كيفية حشر الأجساد :

القائلون بحشر الأجساد اختلفوا فى ذلك هل هو بإيجـاد بعـد فناء أو بالجمع بعد التفرق .

ولقد توقف بعض المحققين فى ذلك منهم إمام الحرمين الــذى قال : " لم يدل قاطع سمعى على تعيين أحدهما " . فلا يبعد أن يعيد الله تركيب الأجسام بعد أن تحولت إلى تراب كما لا يبعد أن يعــدم الله الأجسام ثم يعيدها .

وإذا كان صاحب المقاصد قد قال : والحق التوقف فى ذلك .

فأننى أرى أن أعادة الأجسام بعد عدمها أوقع فى إثبات القدرة خاصة وأن العلم الحديث – وهو مخلوق .

قد أثبت أن المادة تفنى وتستحدث من عدم وقد صدق الله فـــى قوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ الأنبياء : ١٠٤ .



الحساب

تعريفه :

الحساب لغة : العد والإحصاء والتقدير .

وشرعًا : إطلاع الله عباده قبل انصرافهم من المحشر على ماقدموه فى حياتهم من تصرفات فعلية وقولية واعتقادية خيرًا كانت أو شرًا .

الدليل عليه :

لقد دلت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية على ثبوت الحساب ووقوعه .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ الغاشية : ٢٥ ، ٢٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ البقرة : ٢٨٤ .

وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الحجر : ٩٢ .

ومن السنة قوله ﷺ : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا " [١] .

ويعد الحساب من أهم مايراه الإنسان من أحداث يوم القيامة

---

(١) رواه أحمد وابن عساكر .

ومن أجل ذلك سمى هذا اليوم بيوم الحساب كما قال تعالى : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ص : ٥٣ .

والحساب يكون يسيرًا على من صلحت عقيدته واستقام سلوكه وعسيرًا من فسدت عقيدته وفسق عن أمر ربه . كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ الانشقاق : ٧ - ١٢ .

والحكمة من الحساب إظهار فضل المؤمنين وفضائح العاصين على رؤوس الأشهاد . ثم إن ذلك زيادة فى أقامة الحجة على من عصى

عن أنس بن مالك : قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجزه . قال : أتدرون مما أضحك . قلنا : لا يارسول الله . قال : من مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ألم تجزنى من الظلم فيقول : بلى . فيقول : إنى لا أجيز اليوم على نفسى شاهدًا إلا منى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا والكرام الكاتبين شهودا . فيختم على فيه ويقال لأركانه : أنطقى فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعدا وسحقا فعنكن كنت أناضل [١] .

معنى ذلك : أن الحساب ثابت بالكتاب والسنة والحكمة منه إقامة الحجة من الحق على الخلق .

---

(١) رواه مسلم .

الصراط

هو جسر ممدود على ظهر جهنم يرده الخلق كافة ، والــدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

وقد قالت المعتزلة أنه طريق بين الجنة والنار يتسع على أهل الجنة ويضيق على أهل النار .

وأما صفته :

فقد قال بعض السلف أنه أدق من الشعر وأحد من السيف .

وقد قالت المعتزلة كيف يكون طريقا إذا كان بهذا الوصــف ، وكيف يكلف المؤمن بهذا والزمان ليس زمان تكليف .

وقد رد الغزالى بقوله :

" إن صدر هذا الكلام ممن ينكر قدرة الله على ذلك فــالكلام معه فى عموم القدرة . وإن صدر من يعترف بالقدرة فليس المشى على هذا بأعجب من المشى فى الهواء " .

وأنا أميل :

إلى مذهب المعتزلة فى ذلك لأن المسألة هنا لا تتعلق بقــدرة الله لأنه بهذا الوصف يكون ابتلاء والآخرة ليست بدار ابتلاء ، ثــم إنه قد ورد أن الصبر يعرض الصراط . ثم إن الصراط لا يــسمى صراطا إلا لاستطاعة الإنسان السير عليه . . .

يقول النبى ﷺ : (يضرب الصراط بين ظهرى جهنم فـأكون أنا وأمتى أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئـذٍ إلا الرسـل ، ودعـوة الرسل يومئذٍ : اللهم سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك الـسعدان غير أنه لا يعلم ماقدر عظمها إلا الله عز وجـل تخطـف النـاس بأعمالهم) .



الميزان

وهو أمر حق واجب التصديق بـه لأنـه علـم مـن الـدين بالضرورة والدليل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ الأنبياء : ٤٧ .

وقوله تعـالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المؤمنون : ١٠٢ .

وغير ذلك من الآيات الواضحة والصريحة فى هـذا المعنـى ولا التفات لمن قال إن الميزان المقصود هو العدل كما فـى قولـه تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ الحديد : ٢٥ .

لأنه لو كان الميزان هو العدل لكان لايثبت فيه معنـى للثقـل والخفة فدل على أن المراد به الميزان المعروف الذى يشتمل علـى ماتشمل عليه الموازين فيما بيننا .

فإن قيل : كيف توزن الأعمال وهى أعراض ؟

قلنا : هناك إجابتان :

الأولى : سئل النبى ﷺ عن هذا فقـال : " تـوزن صـحائف الأعمال " . ذكر ذلك الغزالى .

الثانية : لامانع أن تأتى الأعراض وتعود مصوره بما فيهـا من حسنات وسيئات فإن العلم الحديث – وهـو المخلـوق – قـد

استحدث أمورا تصور حركات الإنسان ويستطيع الإنسان إعادتهـــا في أى وقت يشاء .

مثل كاميرات الفيديو وخلافه فلا مانع من أن تـــضم أعمـــال الإنسان الحسنة إلى بعضها ، وأعماله القبيحة إلى بعضها ثم يوزن بينهما .

❁❁❁

الشفاعة

تعريفها :

الشفاعة لغة : مأخوذة من الشفع الذى هو ضد الوتر .

وهى فى اللغة : الوسيلة والطلب .

وفى العرف : سؤال الخير للغير (كما يقول صاحب مختار الصحاح) .

وفى الشرع : سؤال النبى – ﷺ – وكذا الأنبياء . . . ، ألوانا من الخير للخلائق أجمعين أو لبعض المؤمنين والتائبين والعصاة من أمة محمد ﷺ .

أركانها :

للشفاعة أركان أربعة : شافع – ومشفوع له – ومشفوع فيه – ومشفوع إليه .

وقد تكون ثلاثة أركان إذا كانت فى حق الله سبحانه وتعالى فالله يكون الشافع والمشفوع إليه .

أنواعها : **للشفاعة ثلاثة أنواع** :

النوع الأول : شفاعة النبى ﷺ وهى :

١ – الشفاعة العظمى : وهى أول المقام المحمود المذكور فى قوله : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ الأسراء : ٧٩ . وذلك بأن

يصرف الله الناس من الموقف العظيم . يقول أحد الشعراء :

لك الشفاعة أُخـــرت لتنالهـــا ∴ وعليك كل المرسلين أحالهـــا

فخررت مفتخرا وقلت أنا لها ∴ جاهى وحبل وسيلتى لا يصرم

٢ – شفاعة فى إدخال قوم الجنة بغير حساب .

٣ – شفاعة فى إخراج بعض الأمة من النار .

٤ – شفاعته فى جماعة من صـــالحى أمتـــه ليتجـــاوز عـــن تقصيرهم فى الطاعات .

النوع الثانى : شفاعات لغيره ﷺ : من الصحابة ، والأوليـــاء والشهداء ، والعلماء . كل على قدر مقامه من الله .

النوع الثالث : شفاعة الملائكة .

دليل الشفاعة :

الشفاعة على عمومها ثابتـــة بالكتـــاب والـــسنة والإجمـــاع ويجوزها العقل ولا يحيلها فمن الكتاب قوله تعـــالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ الإسراء : ٧٩ .

وقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ البقرة : ٢٥٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ الأنبياء : ٢٨ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا

إلا مِن بَعْدِ أن يَأذَنَ اللهُ لِمَن يَشاءُ وَيَرضَى ﴾ النجم : ٢٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلا مَن شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف : ٨٦ .

وهذه النصوص القرآنية وغيرها شاهدة على ثبوت الشفاعة ووقوعها يوم القيامة ثم هى شاهدة على حصول الشفاعة منه – ﷺ – ومن غيره أيضا كالملائكة والأنبياء وصالحى المؤمنين .

الدليل من السنة :

هناك أحاديث كثيرة وردت عن النبى ﷺ تؤيد الشفاعة فى حق النبى ﷺ وغيره ، وسوف نقتصر على ذكر الأحاديث التى وردت فى صحيح البخارى وكذا صحيح مسلم .

١ – عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى . . وأعطيت الشفاعة " . رواه البخارى .

٢ – عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبئ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة " . رواه البخارى .

٣ – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عن القبر وأول

شافع وأول مشفع " . رواه مسلم .

وهذه الأحاديث تشير إلى أن الشفاعة العظمى ثابتة لرسول الله .

أما شفاعته لمن كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان دليلها ماجاء فى الروايات الصحيحة .

٤ – عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : " يخرج من النار من قال لا إله إلا الله . . ومن كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها . . . " . رواه مسلم .

٥ – عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : " . . . ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل " . رواه مسلم .

من هذا كله نرى أن الكتاب والسنة ناطقان بالشفاعة بعامه وبأنواعها ويقول صاحب المواقف أجمع المسلمون على ثبوت أصل الشفاعة . (١)

(١) انظر المواقف ص ٣٨٠ ، المقاصد ج٢ ص ١٧٥ ، شرح الأصول الخمسة الإبانة للإشعرى ص ٧٤ .

إمكانها عقلاً :

إذا كانت الشفاعة ثابتة بالكتاب والسنة – كما قدمنا – فإنها ممكنة عقلا لأن المراد من الشفاعة التجاوز عن المسيئ وغفران ذنوبه ، وإذا جاز غفران الذنوب بلا شفاعة ، فلأن يكون ذلك بالشفاعة أولى .

حكمها وشرطها : بعد ذلك نقول إن الشفاعة واجبة شرعًا جائزة عقلاً ، فالإيمان بها واجب . [1]

وأما شرطيها فهما :

١ – عدم شرك المشفوع له .

٢ – إذن المشفوع إليه .

* * *

(١) دراسات فى العقيدة للدكتور / الصافى ص ١٧٥ ، السمعيات للدكتور / أحمد لجمل ص ٢٤ .

الجنة والنار

الجنة والنار هما نهاية المطاف فى الآخرة إذ ليس بعدهما من أحوال الآخرة إلا خلود أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار .

والجنة فى اللغة : الحديقة قال تعــالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ القلم : ١٧ .

وهى فى عرف الشرع : دار الثواب التى أعدت للمتقين فــى الآخرة .

والنار : هى دار العقاب التى جعلــت للكــافرين والمنــافقين وسائر العصاة ممن حرموا الشفاعة .

أدلتهما :

الجنة والنار ثابتتان شرعا بالكتاب والسنة ، واتفاق جمهــور العقلاء ، وكذا العقل الذى لا يحيل عقاب العاصى وإثابة المطيع .

ومن الأدلة القرآنيــة علــى وجــود الجنــة قولــه تعــالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ البقرة : ٨٢ .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ التوبة : ١١١ .

والآيات كثيرة لا يتسع المقام لذكرها .

وكذلك الأدلة التى تواترت عن رسول الله ﷺ فى وجود الجنة ووصف النعيم الذى يلقاه أهلها كثيرة .

وكذلك النار فقد دل القرآن فى الكثير من الآيات كما استفاضت السنة فى ذكرها وتصوير عذابها وصفة أهلها ... وهكذا .

هل الجنة والنار موجودتان الآن ؟

١ – يذهب أهل السنة أن الجنة والنار موجودتان الآن واستدلوا على ذلك بما يأتى :

أ – قصة سيدنا آدم وزوجه حواء وسكناهما الجنة ثم إخراجهما منها بالأكل من الشجرة .

وقد ذهب الجمهور على أن الجنة هى جنة الخلد التى وعد المتقون وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث .

وقد عارض المعتزلة هذا وقالوا أنها بستان من بساتين الأرض ولا يعنى الهبوط الانحدار من أعلى بدليل قول الله ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ البقرة : ٦١ . كما أن جنة الآخرة ليس فيها تكليف ، ودخول إبليس أيضا يدل على أن الجنة كانت بستان من بساتين الأرض .

ب – قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ النجم : ١٣ – ١٥ .

وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران : ١٣٣ .

وقوله : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ق : ٣١ .

وفـــى شـــأن جهـــنم قـــال الله تعـــالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة : ٢٤ .

وقوله : ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ الشعراء : ٩١ .

وهذه الآيات تدل دلالة واضحة على وجود الجنة والنار الآن.

وكذلك السنة النبوية تؤيد ذلك منها :

وقد ردت المعتزلة على ذلك بأن ورود الصيغة بالماضى إنما هو مبالغة فى تحقيق الوقوع فى المستقبل ، وهناك آيات تشير إلـــى ذلك مثل قوله تعالى : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ النحل : ١ .

وقوله : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الزمـــر : ٦٨ . وقولـــه : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الأعراف : ٤٤ .

٢ – المعتزلة قالوا أنهمـــا ليـــستا موجودتـــان الآن وســـوف يخلقهما الله يوم الجزاء .

أدلة المعتزلة على عدم وجودهما :

١ – أن خلقهما الآن عبث لايليق بالحكيم ، إذ لا حاجة إليهما الآن لأنه لا ثواب ولا عقاب إلا فى الآخرة ، والعبث قبيح فيستحيل على الله فعله .

الرد على هذه الشبهة :

أن خلقهما يتضمن حكما كثيرة منها الترغيب والترهيب حتى يكون الإنسان أحرص على العبادة إذا عرف بوجود دار ثوابه من الآن .

ثم إن الله إذا فعل شيئا لايلزم وجود غرض ظاهر في هذا الفعل لأنه لا يسأل عما يفعل . فقد يكون في فعله حكمة خافية على عقولنا القاصرة .

٢ – لو كانتا مخلوقتان الآن لهلكتا يوم القيامة لأن ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ القصص : ٨٨ . وهذا باطل .

لأن الجنة والنار دائمان لقوله تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ الرعد : ٣٥ . وبهذا تعين عدم وجودهما حتى لا ينقطع النعيم وكذا العذاب .

الرد على الشبهة :

** قد يكون الجنة والنار مما لايدخل في عموم قوله تعالى كل شئ هالك .

** قد يكون الهلاك غير مستلزم الفناء ويكون المعنى كل شئ عدا الله في حد ذاته هالك لكونه ممكنا لا يستحق الوجود إلا الله . (١)

(١) انظر : المقاصد ج٢ ص ١٠١ .

** قد يفنيا لحظة وهذا لا يتعارض مع قوله (أكلها دائـــم) لأن الإنسان لا يستمر فى الأكل على الدوام بل قد ينقطع عن الأكل حين يشبع .

والجنة والنار باقيتان .

فقد أخبر الله عز وجل أن أهل الجنة خالدون فيها وكذلك أهل النار .

فقد قال عن أهل الجنة : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ الطلاق : ١١ .

وقال عن أهل النار : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الجن : ٢٣ .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : (يجاء بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح . . فيذبح . ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت . ويا أهل النار ، خلود فلا موت) .

✿ ✿ ✿

الفصل الثالث عشر

رؤية الله تعالى فى الآخرة

** المجوزين للرؤية وأدلتهم .

** المنكرون للرؤية وأدلتهم .

** ولنا كلمة .

رؤية الله تعالى فى الآخرة

أهل السنة والجماعة من السلف والأشاعرة والصوفية والماتريدية ومعهم الكرامية يرون جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة وأن المؤمنين سوف يرون ربهم فى الجنة رؤية بصرية بأعينهم التى فى وجوههم بلا كيف . بخلاف الكرامية الذين يقولون بالجسمية .

بينما يذهب المعتزلة والجهمية والخوارج ومعهم الفلاسفة إلى القول بأن الله لا يُرى بالأبصار ولا يجوز عليه ذلك .

ولكل من الفريقين أدلته السمعية والعقلية .

المجوزين للرؤية وأدلتهم

**** الأدلة من القرآن الكريم :**

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ✿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ القيامة : ٢٢ – ٢٣ .

وقد اتفق علماء أهل السنة على أن المراد بهذه الآية رؤية المؤمنين ربهم ، فقد قال ابن عباس ، والحسن البصرى [1] المراد : النظر إلى الخالق .

وروى ذلك عن الأمام مالك وغيره من العلماء .

---

(١) الشريعة للأجرى ص ٢٥٦ .

ثم إن النظر إذا اقترن بالوجه دل على أن المراد به الرؤية البصرية .[1]

يرى المعتزلة أن المراد من الآية هنا أن المؤمنين فى الآخرة سوف ينتظرون النعم من الله عز وجل بدعوى أن (إلى) ليس حرف جر وإنما هى إسم مفرد (آلاء) .

ثم إن النظر إذا اقترن بأل لايدل بالضرورة على الرؤية البصرية بل تدل على الانتظار وفى ذلك يقول حسان بن ثابت :

وجوه يوم بدر ناظرات ∴ إلى الرحمن يأتى بالغمام

وقد أجاب الأشاعرة بأن الانتظار فيه تنغيص وقديمًا قالوا الانتظار هُو الموت الأحمر . وهذا يتنافى مع أحوال المؤمنيين فى الآخرة . ثم إن قول حسان بن ثابت ليس فيه مايدل على الانتظار بل يدل على أن المؤمنين كانوا ينظرون إلى السماء أو جهة الفوق يدعون البارى ليمدهم بالملائكة .

---

(١) النظر له معان أربعة :

الرؤية كما فى هذه الآية .

بمعنى التفكر والاعتبار كما فى قوله : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ ﴾ .

بمعنى الانتظار كما فى قوله : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ .

بمعنى الرحمة والعطف : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ .

انظر ص ٣٠٥ من المواقف النسخة المجردة .

الدليل الثـــانى : ماحكاه الله عن موسى عليه السلام فى قوله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ الأعراف : ١٤٣ .

وموسى عليه السلام لايمكن أن يكون جاهلاً بما يجوز ومـــا يستحيل على الله .

ثم إن الله لم ينكر عليه سؤاله كما أنكر على نوح فـــى قولـــه تعالى : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود : ٤٦ .

والحق سبحانه لم يقل فى جوابه لموسى : لن أرى ، أو لست بمرئى . وكونه قال له : (لن ترانى) يشير إلى أنه سبحانه يُـــرى غير أن المانع من الرؤية متعلقة بالرائى وتكوينه .

ثم إن الله علق الرؤية على أمر ممكن وهو استقرار الجبل .

يرى المعتزلة أن منع موسى من الرؤية دليل على اســـتحالتها ذلك أن موسى عليه السلام وهو الكليم لم يرى ربه وإذا منع موسى فغيره أولى بالمنع . وعدم الرؤية يرجع إلى ذات المرئى ولهذا فلن يراه أحدُ .

الدليل الثالث : قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ يونس : ٢٦ .

فالحسنى هى الجنة والزيادة رؤية البارى سبحانه .

وقد فسر رسول الله ﷺ الزيادة برؤيـــة الله حيــث ورد فـــى صحيح مسلم : أن رســـول الله ﷺ قــرأ ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النـــار . نـــادى مناد . يا أهل الجنة : إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكمـــوه فيقولون ماهو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويـــدخلنا الجنـــة ويزحزحنا عن النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون الله . فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهى الزيادة . [1]

وليس بعد تفسير رسول الله ﷺ للقرآن قـــول لبـــشر . ولهـــذا أجمع أهل السنة على أن الزيادة هنا هى رؤية الله عز وجل .

الدليل الرابع : قوله تعالى مخبرًا عـــن حـــال الكفـــار فـــى الآخرى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ المطففين : ١٥ .

وإذا كانت عقوبة الكفار فى الآخرة هى حرمانهم مـــن رؤيـــة الحق سبحانه وتعالى . فهذا دليل على أن المؤمنين ســـوف يـــرون ربهم .

قال الأمام مالك فى هذه الآية : لما حجب أعداءه فلـــم يـــروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الأمام الشافعى : لما حجب قومًـــا بالسخط ، دل على أن قومًا يرونه بالرضا . [2]

---

(١) صحيح مسلم ج٣ ص ١٧ باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم .

(٢) تفسير القرطبى ج٩ ص ٢٥٩ .

وقد قال المعتزلة إن الكفار محجوبون عن ثواب الله ورحمته

الدليل الخامس : كل الآيات الدالة على لقاء الله سبحانه وتعالى والتي منها : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الكهف : ١١٠ . ومنها : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ الأحزاب : ٤٤ . وغير ذلك من الآيات .

واللقى في هذه الآيات وماشابهها لا يكون إلا بمعاينة يراهم الله ويرونه . لأن اللقاء إذا أطلق على الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية ، وعلى هذا أجمع أهل اللسان . (١)

الدليل السادس : قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ سورة ق : ٣٥ .

فقد روى في تفسير المزيد بالنظر إلى وجه اللله عز وجل . فقد روى عن علي بن أبي طالب ، وأنس بن مالك رضي الله عنهما أن المزيد هو النظر إلى وجه الله عز وجل . (٢)

الدليل السابع : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ✿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ المطففين : ٢٢ – ٢٣ .

---

(١) حادى الأرواح لابن القيم ص ٢٠٦ .

(٢) حادى الأرواح ص ٢٨٣ .

يقول الفخر الرازى بعد أن ذكر ثلاثة أوجه فى تفسير الآيـــة ويخطر ببالى تفسير رابع وهو أشرف من الكل وهو أنهـــم علـــى الأرائك ينظرون إلى ربهم ، ويتأكد هذا التأويل بما أنه قال بعد هذه الآية : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ .

والنظر المقرون بالنضرة هو رؤية الله تعالى على ماقال فى سورة القيامة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ✿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

ووما يؤكد هذا التأويل أنه يجب الابتداء بذكر أعظم اللـــذات وماهو إلا رؤية الله تعالى . (١)

ونحن نقول مما يؤكد صحة هذا التأويل وقبوله أن هذه الآيات قد سبقتها الآيات الدالة على حرمان الكفار من رؤية وجـــه القهـــار سبحانه وتعالى . فناسب نكاية فى هؤلاء الكفار وقد حرمـــوا هـــذه اللذة أن يتمتع المؤمنون برؤية الحق سبحانه .

**** الأدلة من السنة النبوية :**

الدليل الأول : مارواه البخارى عن جرير قال : (كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر . قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته) .

وفى رواية أخرى (إنكم سترون ربكم عيانا) . (٢)

(١) التفسير الكبير ج١٣ ص ٩٩ .

(٢) البخارى ٨ / ١٧٩ . باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ✿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾.

وقوله ﷺ : لا تضامون من الضيم والمشقة . أى لا يلحقكم مشقة من رؤية البارى فى الآخرة مع شدة ظهوره وتجليه كما يلحق الرائى فى الدنيا عند رؤيته الأشياء الظاهرة الوضوح ، كالشمس وخلافها .

مع ملاحظة أن التشبيه هنا تشبيه رؤية برؤية وليس تشبيه مرئى بمرئى .

الدليل الثانى : مارواه البخارى عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : مامنكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبين الله ترجمان) . وفى رواية : (مامن أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه) . [١]

الدليل الثالث : مارواه أحمد عن عمار بن ياسر أنه صلى صلاة فأوجز فيها – ثم قال دعوت الله تبارك وتعالى فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ . . . اللهم أنى أسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك . [٢]

الدليل الرابع : مارواه الأمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) [٣] .

---

(١) البخارى ٧ / ١٩٨ كتاب الرقائق باب ٠ من نوقش الحساب عذب) .
(٢) السنة للأمام أحمد ١ / ٢٥٤ حديث رقم ٤٦٦ .
(٣) رواه أحمد ٥ / ٣٣٤ .

الدليل الخامس : ماروواه البخارى ومسلم من حديث أبى موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال (جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما . وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن) . [1]

هذه الأحاديث وغيرها تدل صراحة على أن المؤمنين سوف يرون ربهم عز وجل دون مشقة وأن المؤمنين فى الدنيا لايفتر لسانهم عن سؤال الحق سبحانه لذة النظر إلى وجهه الكريم والشوق إلى لقائه نمن غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . لأنها كانت دعوات لرسول الله ﷺ .

والمعتزلة يرون أن هذه أخبار آحاد لايعمل بها فى مجال العقائد .

❋ ❋ ❋

(١) البخارى ٨ / ١٨٥ ، ومسلم ٣ / ١٦ .

المنكرون للرؤية وأدلتهم

كما قلنا فإن المعتزلة والجهمية ومعهم الخوارج ينكرون رؤية الباري سبحانه وتعالى ، ولهم أيضا استدلالاتهم التي وقفوا بها أمام المؤيدين .

وهذه الأدلة نقلية وعقلية .

الأدلة النقلية لمنكري الرؤية :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ الأنعام : ١٠٣ .

وهذه الآية تفيد نفي رؤية الباري من وجوه :

◄◄ عموم النفي في كل وقت من غير تخصيص لأن لفظ الأبصار صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهي تفيد العموم والاستغراق .

◄◄ أنه سبحانه تمدح بكونه لايرى ، وماكان عدمه مدحًا كان وجوده نقصًا يجب تنزيهه عنه .

◄◄ أن الأدراك المضاف إلى الأبصار لايفيد سوى الرؤية ولهذا فنفي الأدراك نفي للرؤية ، وثبوت الأدراك ثبوت للرؤية . (١)

---

(١) المواقف ص ٣٠٨ ، شرح الأصول الخمسة ص ٢٣٣ .

وقد رد الأشاعرة على هذا الدليل بما يلى :

أولاً : أن الأدراك هو الرؤية على نعت الاحاطـة بجوانـب المرئى إذ حقيقته النيل والوصول . كما قال أصحاب موسى (إنـا لمدركون) ثم إن نفى أحدهما لايستلزم الآخر بل يجـوز أن يقـال رأيته وما أدركه بصرى . فالأدراك يفيد الرؤية وزيادة .

ثانيًا : أن تدركه الأبصار (موجبة كليه) ، وقد دخل عليهـا النفى فرفعها ورفع الموجبة الكلية (سالبة جزئية) . هذا إذا كانت اللام فى إلجمع للعموم . كما فى (ليس كل الطـلاب نـاجحون) عكسها (بعض الطلاب ناجحون) .

ثالثًـا : أنها وإن عمت الأشخاص فإنهـا لاتعـم الأزمـان ، والأشاعرة يقولون بذلك حيث لايرى فى الدنيا .

رابعًـا : أن الآية تدل على نفى رؤية الأبصار ولا يلزم منـه نفى رؤية المبصرين لجواز أن يكون ذلك نفيًا للرؤيـة بالجارحـة مواجهة وانطباعًا .

خامسًا : إذا كانت الرؤية ممنوعة كما تقولون فلـيس هنـاك تمدح إذ لامدح للمعدوم بأنه لايرى حيث لم يمكـن ذلـك . وإنمـا المدح فيه للمتنع المتعزز بحجاب الكبرياء . فالآية تشير إلى ضـد ماذكرتم . (١)

---

(١) المواقف ص ٣٠٩ .

الدليل الثانى : قوله تعالى حكاية موسى : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ الأعراف : ١٤٣ .

فقوله (لن ترانى) للتأبيد . ذلك أن (لن) تفيد ماتفيده (لا) وزيادة . (١)

وإذا لم يره موسى فلن يره غيره إجماعًا .

وقد رد الأشاعرة على هذا الاستدلال من عدة وجوه :

أولاً : . موسى عليه السلام قد سأل الرؤيـــة وهـــذا دليـــل الجواز لأنه محال أن يكون موسى جاهلاً عن مايعرفه المعتزلة .

ثانيًا : أن الله علق الرؤية على شيئ ممكن وهـــو اســـتقرار الجبل والحق قادر على أن يُقر الجبل وقت تجليه .

ثالثًا : أن موسى سأل الرؤية وهو على الأرض وبهيئته التى لا تقوى على التجليات الألهية . بدليل أنه صعق من رؤية إنـــدكاك الجبل . فكيف لو رأى المتجلى ذاته .

رابعًا : إن لن لا تفيد النفى فى المستقبل بدليل أن الكفار أخبر عنهم الحق بأنهم لن يتمنوا الموت حيث قال : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ البقـــرة : ٩٥ . مع أنهم فى الآخرة سوف يتمنون الموت كما قـــال : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ الزخرف : ٧٧ . وقوله : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ

---

(١) الكشاف ج٢ ص ١١٣ .

يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ النبأ : ٤٠ .

الدليل الثالث : قالوا : إنه تعالى ماذكر الرؤية فى القــرآن إلا استعظمها وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ البقرة : ٥٥ .

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ النساء : ٥٥ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ الفرقان : ٢١ .

وهذا يدل على عدم جواز الرؤية .

وقد أجاب أهل السنة على هذا الدليل بأن بنى اســرائيل قــد سألوا موسى عليه السلام هذا السؤال تعنتًا وعنادًا . ولهذا اســتعظم أيضا إنزال الملائكة وإنزال الكتاب مع كونهما ممكنين .

ولو كانت الرؤية ممتنعة لمنعهم موسى وعنّفهم مثــل مافعــل معهم حين طلبوا منه أن يجعل لهم إلها حيث قال لهــم : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ الأعراف : ١٣٨ .

الدليل الرابع : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ الشورى : ٥١ .

وحيث لم يره وقت الكلام من يكلمه لم يره غيره إجماعًا .

وقد أجاب أهل السنة أن التكليم وحيًا قد يكون حــال الرؤيــة وماذا فيه من الدليل على نفى الرؤية ؟

وأخيرًا لنا كلمة فيما يتعلق بالرؤية

إن مقصد الأشاعرة ومعهم أهل السنة تنزيه النص والمحافظة على قدسيته ، بينما اهتم المعتزلة بتنزيه البارى سبحانه فكلاهما يشفع لهما محاولات التنزيه هذا لكلام الله وأخباره ، وهذا لله وجلاله .

إن الفريقين ينفيان أن يكون شعاعًا صادرًا من المرئى إلى عين الرائى وهى الرؤية المعهودة فى دنيا الناس . فالفريقان متفقان على هذه الكيفية إذا هما ينفيان الجسمية عن الله تعالى .

إن الفريقين يستعملان قياس الغائب على الشاهد هذا لإثبات الرؤية (كما فى دليل الوجود) وهذا لنفى الرؤية كما فى شروط صحة الرؤية من المقابلة والجسمية كما عند المعتزلة .

إن مسألة الرؤية ليست من السهولة بمكان حتى يستطيع الإنسان بسهولة الوصول إلى رأى حاسم فيها ، ولهذا فإن بعض الأشاعرة يعترف بصعوبة التدليل العقلى على جواز الرؤية مثل الفخر الرازى وهو من نعرف فى عقله وفكره .

وكذلك فعل أبو منصور الماتريدى قال لا دليل على مسألة الرؤية إلا السمع .

والأمام الغزالى نظرًا لتعارض الأدلة عنده نجده يقول بالرؤية القلبية .

إن مايهمنا هو لذة النظر إلى وجه الله الكريم سواء كان النظر بهذه العين التى فى الدنيا أم بغيرها . وقد يخلق الله عز وجل فينا نوعًا من الادراكات نشاهد بها البارى ونلذ بهذا الإدراك خاصة والآخرة ستكون وقتا لخرق العادة . والحق سوف ينشئ المؤمنين نشأة أخرى غير التى كانوا عليها .

فإذا كانت الآخرة تختلف عن الحياة الدنيا فى كل شيئ حيث اننا فى الدنيا نعيش بأسباب الله أما فى الآخرة فستكون حياتنا بالله كما قال تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ الفرقان : ٢٦ .

إذا كانت اللذائذ الحسية فى الآخرة لا تشترك مع مافى الدنيا إلا فى الأسماء (مثل الأزواج والفاكهة) ثم إن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونفاة الرؤية يقرون بذلك . فلماذا لاتكون أكمل اللذات وأشرفها وهى رؤية الله عز وجل مختلفة فى شروطها وكيفيتها عما هى عليه فى الدنيا .

لماذا نضيق واسعًا ونحجر على فضل الله عز وجل خاصة وأنه تكرمًا منه وفضلاً أخبرنا بأنه سيكشف الحجاب عن ذاته حتى يراه الذين سعدوا فى الجنة .

ألم يخبر الحق سبحانه بأن أهل الجنة ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ .

والحق لا يخلف وعده ، والكريم لا يبخل على عباده الذين

عبدوه في الدنيا وكأنهم يرونه .

إننا وإن كنا نعذر المعتزلة ومن وافقهم في فهمهـم لمسألة الرؤية إلا أن قلوبنا ونفوسنا وأرواحنا مع الذين قالوا بإمكانها عقلاً ووقوعها سمعًا في الدنيا لسيد البشر وفي الآخرة للمؤمنين الذين سألوه في الدنيا لذة النظر إلى وجهه الكريم . والله أعلم .



فهرس الموضوعات

❋ ❋ ❋

رقم الايداع : ٥٩٦٧ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 224 - 469 - 1